ستيفان زفايغ

الخوف

نوفيلا

ترجمة: أبو بكر العيادي

مسكيلياني


الخوف
مكتبة | 170

ستيفان زفايغ

الخوف

لقد استطاع زفايغ، بما له من قدرة على سبر أعماق النفس الإنسانية، أن يخلق عملاً بالغ التشويق، يجعل القارئ يلهث مع البطلة، الساعية إلى حلّ يتمنّع عليها، حتى صارت كالسائرة إلى حتفها بظلفها، منساقة وراء قدر غامض لا تعلم من سطّره إلا حينما شارفت على وضع حدّ لحياتها اتّقاءَ الفضيحة والعار.

إنّها حكاية امرأة من داخل الوسط الأرستقراطي ملّت حياةَ الرتابة فرامت المغامرة، وخلعت أغلالها، لتجد نفسَها مكبّلة بأغلال جديدة. وبين نداء الذات وسطوة المجتمع خيطٌ مشدود على الهاوية تقف عليه البطلة مسكونة بالرعب وحيدةً لا أحد يشاركها حالها غير زفايغ وهو يعاين هشاشة الإنسان وتقلّباته.

في هذه القصة، التي تحولت منذ العشرينيات إلى أفلام سينمائية عديدة، أشهرها من إخراج روبرتو روسلّيني وبطولة إنغريد برغمان، نجد الثيمات التي شغلت زفايغ، كالموت، والخوف من الفضيحة والعار، والاعتراف، والصفح. وكعادته يبرع زفايغ في تصوير ما يعتمل في النفس من ضرام تصويرًا ينمّ عن سعة تجربة ونفاذ بصيرة.

أبو بكر العيّادي

ستيفان زفايغ



ترجمة: أبو بكر العيّادي



الكاتب: ستيفان زفايغ

عنوان الكتاب: الخوف

ترجمة: أبو بكر العيّادي

تدقيق: بلال المسعودي

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-992-75-5

الطبعة الأولى: 2018



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

عندما غادرت إيرين شقّة عشيقها ونزلت المدرج، استبدّ بها من جديدٍ، بغتةً، خوفٌ مبهمٌ. شكلٌ أسود شرَع فجأةً يدور أمام عينيها كدوّامةٍ، فجمَّد تصلّبٌ فظيعٌ رجلَيْها واضطرّت إلى التشبّث بالدرابزين لكيْلاَ تقع بعنف إلى الأمام. لم تكن تلك المرّةَ الأولى التي غامرت فيها بالمجيء إلى هنا، ولم يكن ذلك الرّعب المفاجئ مجهولاً لديها تمامًا، فرغم مقاومتها بكلّ كيانها، كانت كلّما انصرفت وقعت في سورة خوفٍ عبثيّةٍ ومثيرةٍ للسخرية. كان الذهاب إلى الموعد أسهل بكثيرٍ. توقِف السيّارة في عطْفة الشّارع، ودون أن ترفع عينيها، تقطع بسرعةٍ الأمتار القليلة التي تفصلها عن بوّابة العربات، ثمّ تصعَد على عجلٍ درجاتَ المدرج، وهي تعرفُ أنّه في انتظارها خلْف الباب، على أهبّة فتحه. ذلك الرّعب الأوّل، الذي يختلط به تلهّفٌ حارقٌ، ينقشع عند العناق الوله للقاء. ولكن بعد ذلك، عندما تستعدّ للرّجوع إلى بيتها، تنتابها رجفةٌ مختلفةٌ، رعبٌ غامضٌ، مرتبطٌ هذه المرّة بشكلٍ مشوّشٍ بفظاعة الخطأ المرتكَب وذلك الوهم العبثيّ بأنّ كلّ نظرةٍ غريبة في الشّارع يمكن أن تعرف من أين جاءت لو انحطّت عليها، وترمي هلعها بابتسامةٍ وقحةٍ. كانت الدّقائق الأخيرة التي قضّتها برفقته قد تسمّمت بعدُ بالضّيق المتزايد الذي تسبّبه خشيتُها. وعند الانصراف، كانت في حالٍ من العجلة والاحتقان جعلَت يديها

ترتعدان. كانت تسمع ما يقول بغير انتباهٍ وتدفع بحركةٍ نفاد صبرٍ آخر اندفاعات عِشقه. أن تذهب، يغدو عندئذٍ الشيءَ الوحيد الذي ترغب فيه بكلّ كيانها، أن تغادر تلك الشقّة، وتلك العمارة، وأن تهرب من المغامرة، وتستعيد هدوء عالمها البرجوازي. [كانت لا تكاد تنظر إلى وجهها في المرآة، إذ تخشى الشكّ في نظرتها نفسها، ولكنها تضطرّ إلى أن تتأكّد هل ثمّة خلل في ثيابها يشي بلحظات العشق تلك.] تليها كلمات بغاية الطمأنة، لم تكن تسمعها إلا لمامًا من فرط تشنّجها، ثمّ لحظة التنصّت، خلف الباب، للتأكّد من أنّه لا أحد يصعد المدرج أو ينزل منه. ولكن في الخارج، يكون الخوف في انتظارها، متلهّفًا للإمساك بها، يضغط على قلبها بإلحاحٍ، يُفقدها أنفاسها حتّى قبل أن تنزل الدّرجات القليلة [وكانت تحسّ بأنّ كامل قواها، التي جمّعتها بتوتير أعصابها إلى الحدّ الأقصى، تخونها].

ظلّت دقيقةً على تلك الحال، مغمضة العينين، تتنفّس النّداوة بشراهة في ظلمة المدرج. انغلق فجأةً باب في أحد الطّوابق العليا، فارتعبت، ثم تمالكت نفسها وأسرعت في النزول، وهي تعدّل على وجهها بحركة آلية غلالتَهُ السّميكة. ثم ها هي تشهد دنوّ اللّحظة الحاسمة، والأشدّ رعبًا: الفزع من بلوغ الشّارع وهي تغادر بيتًا ليس بيتها [والاصطدام ربّما بشخصٍ معروفٍ يمرّ من هنا، قد يلحّ كي يعرف من أين جاءت، ويغرقها في ارتباك الكذب وخطره]. نكست رأسها، كلاعب قوى يستعدّ للقفز، ثم قرّ منها العزم فجأةً أن تنطلق نحو بوابة العربات المفتوحة.

اصطدمت بعنفٍ بامرأةٍ كان يبدو أنّها تريد الدخول. -عفوًا- قالت في خجلٍ وهي تحاول الانفلات. ولكنّ المرأة سدّت عليها الممرّ وراحت تتطلع فيها بغضبٍ، واحتقارٍ غير خافٍ أيضًا. «آه، مسكتكِ هذه المرّة!» صاحت بصوتٍ مبتذلٍ دون أن تشعر بأدنى حرَجٍ. «بطبيعة الحال، سيّدة كما ينبغي، كما تزعم يعني! لا تقنع بزوج، ومالٍ كثيرٍ وما يتبع، ينبغي أيضًا أن تأتي للاستيلاء على عشيق بنت مسكينةٍ...»

-«بحقّ السّماء، ماذا دهاكِ...؟ أنتِ مخطئة!...» غمغمت إيرين وهي تحاولُ التملّص برعونةٍ؛ ولكنّ المرأة سدّت أمامَها السّبيل بكامل عرض جسدِها الضّخم، وذمّتهَا بصوتٍ ثاقبٍ: «كلاّ، لستُ مخطئةً... أعرفُك... أنت تأتين إلى إدوارد، صديقي... الآن وقد أمسكتكِ، أفهم لماذا لم يعُد يهتمّ بي في الأيّام الأخيرة إلا نادرًا... كان ذلك بسببك أنت... يا...!»

-«بحقّ السّماء»، قاطعتَها إيرين بصوتٍ خائرٍ، «لا تصرخي هكذا!» وتراجعت بصورةٍ غريزيةٍ تحت مدخل العمارة. نظرَت إليها المرأة في سخريةٍ: أن تراها هكذا ترتعد من شدّة الخوف، مروّعةً، قد ملأها ارتياحًا فيما يبدو، إذ جعلت تتفحّص ضحيّتها في تعالٍ، مع ابتسامة استهزاءٍ متكبّرة، وارتياح مبتذل يعلي طاقة صوتها ويعطيه ضخامةً مزهوّةً.

-هذه إذن حقيقة أولئك السيّدات المتزوّجات، أولئك السيّدات المتميّزات، حين يأتين ليسرقن منّا أزواجَنا. بغلالة وجه، طبعًا،

غلالة وجه، حتى يواصلن بعدها دائمًا لعب دور السيّدات الشريفات...

-ولكن... ولكن ماذا تريدين منّي في النهاية؟... أنا لا أعرفك... عليّ أن أذهب.

-تذهبين، هو ذا طبعًا... كي تلتقي بالسيّد زوجك... في شقّتك الدافئة، كي تمثّلي دور سيّدات المجتمع المحضيّات بخادماتٍ يساعدنهنّ على خلع ثيابهنّ. ولكن مصيرنا نحن، ما إن كنّا نموت جوعًا أو لا، أنت السيّدة البارزة، فذاكَ لا يعنيك، أليس كذلك؟... هؤلاء النسوة الشريفات يسلبنكِ كلّ ما تملكين...»

التمّت إيرين على نفسها، ثم استجابت لحسٍّ طبيعيٍّ، فأخذت حافظة نقودها وأخرجت منها ما وقع في يدها من أوراقٍ ماليّةٍ. «خذي... ها هي... ولكن دعيني الآن... لن أعود هنا مطلقًا... أقسم لك بذلك.»

وبنظرة ازدراءٍ، تنَاولت المرأة النقود وهي تزمجر: «عاهرة!» انتفضت إيرين لسماع اللّفظة، ولكنّها رأت المرأة تنزاح عن الباب، فانطلقت على عجلٍ تغادر المكان مذهولةً لاهثةً، مثل يائس في برج عالٍ. وفيما هي تجري، كان يخيّل إليها أن الوجوه تمرّ بها سريعة مثل أقنعة مكشّرة؛ صار كل شيء أسودَ أمام عينيها، ووجدت صعوبة في الوصول إلى سيّارة واقفة في عطفة الشارع. تهالكت مثل جثّة على المقعد الخلفي، وإذا كلّ شيء بداخلها متيبّسٌ جامدٌ. عندما سأل

السّائق المستغرب في النهاية تلك الزبونة الفريدة إلى أين ينبغي أن يتّجه، ركّزت فيه للحظةٍ نظرةً فارغة، إلى أن أدرك عقلُها المخدّر في النهاية كلماته. «إلى محطّة الجنوب» أجابت بسرعةٍ؛ وأردفت، وقد خامر ظنّها أن تلك المرأة يمكن أن تتبعها: «بسرعة، هيّا، أسرع!»

أدركَت، أثناء الرّحلة فقط، أن تلك المقابلة قد رجّت فيها أعمق أعماقها. أحسّت بيديها متصلّبتين باردتين، كأنهما بلا حياة، وانتابتها فجأةً رعدة عنيفة هزّت كامل جسدها. صعدت إلى حنجرتها مرارة وانتابتها رغبة في الغثيان، فيما كان هياج أعمى يُحدث في صدرها تشنّجات. ودّت أن تصرخ، أو أن تضرب نفسها بقبضتها كي تتخلّص من فظاعة تلك الذكرى، التي استقرت في مخّها مثل شصّ، أن تنسى دمامة ذلك الوجه، وضحكته الهازئة، والفظاظة المتأتّية من الأنفاس الكريهة لتلك البروليتارية، وذلك الفم الكريه الذي بصَق في وجهها كلمات دنيئة حاقدة، وتلك القبضة الحمراء التي رفعتها لتهديدها. كان شعور الغثيان ذاك يتضخّم ويتزايد صعوده إلى حنجرتها، لا سيّما أنّ السيّارة كانت تنهب الطريق بسرعة، وتلقي بها من جانب إلى آخر. أرادت أن توحي إلى السّائق بتخفيض السّرعة، حين تذكّرت، في الوقت المناسب، أنّها قد لا تملك ما يكفي من النقود لتجزيه خدمته، بما أنّها أعطت تلك المبتزّة كلّ ما لديها. أشارت إليه إذن بالتوقّف ونزلت فجأةً، ما أثار استغراب السّائق مرّةً أخرى. لحسن الحظ، لا يزال لديها ما يكفي من النقود. ولكنها ألْفت نفسها في حيّ مجهول تمامًا، تائهةً وسط أناس منشغلين، تسبّب لها أيّ كلمة

منهم وأي نظرةٍ، عذابًا جسديًّا. ثمّ إنّ رجليها كانتا كأنهما مرتخيتان من شدّة الخوف، تكادان ترفضان حملها بعيدًا. ورغم ذلك كان ينبغي أن تعود إلى بيتها. استجمعت كل طاقتها، وسارت بصعوبةٍ من شارع إلى آخر، في جهد فوق طاقة البشر، كأنّها تعبر مستنقعًا أو تغوص في الثلج حتى الركب، إلى أن وصلت أخيرًا إلى عمارتها فمضت نحو المدرج في اندفاع ما لبثت أن كبحته، لِكَيْلاَ تُظهر شيئا من ارتباكها.

كانت الخادم تخلع عنها معطفها، وصوت ابنها الذي يلهو مع أخته الصغرى يجيئها من الغرفة المجاورة، ونظرتها التي هدأت لا تصادف إلاّ الأشياء المألوفة، الخاصّة بها والمُطَمْئنة. استعادت هيئة رصينة في الظاهر، فيما كانت أمواج الانفعالات الباطنية لا تزال تهزّ بألم صدرها الضيّق. خلعت غلالة وجهٍ جهدت في جعله منشرحًا، وقد قرّ منها العزم على الظهور بمظهر طبيعي، ثم دخلت غرفة الأكل، حيث زوجها يقرأ جريدته أمام المائدة المعدّة للعشاء.

«الوقت متأخر جدًّا عزيزتي إيرين»، قال في نبرة عتابٍ ودّي. نهض وقبّل خدّها، فانتابها، رغمًا عنها، شعور ممض بالخجل. جلسا إلى المائدة، فسأل الزوج في نبرةٍ لامباليةٍ، وهو لا يكاد يرفع عينيه عن الجريدة: «أين كنت طول هذا الوقت؟»

-«كنت... عند... عند أميلي... كان لها اليوم أيضًا أمورٌ تقضيها... فرافقتها»، أضافت، ثم ما لبثت أن اغتاظت من نفسها لكونها تعجّلت الإجابة دون تفكير، فكذبت بغير مهارةٍ. كان من عادتها أن تعدّ مسبّقًا كذبةً بارعةً، قادرة أن

تصمد أمام كلّ التحقيقات المحتملة، ولكن اليومَ أنساها الخوفُ ذلك، واضطرّها إلى ارتجال أخرق. خطَر ببالها فجأةً لو أنّ زوجها يهاتف كي يسترشد، كما في المسرحية التي شاهداها مؤخّرًا...

«ما لك؟... كأنك متشنّجة... ثم لماذا لا تخلعين قبّعتك؟» سأل. ارتجفت حين لاحظت أنّ ارتباكها خانها من جديد، فقامت على عجلٍ واتّجهت إلى غرفتها لتخلع قبّعتها: هناك، تملّت صورتها في المرآة إلى أن بدا لها أن وجهها القلق استعاد كلّ ثقته. ثم عادت إلى قاعة الأكل.

قدّمت الخادم العشاء، وكانت سهرة كباقي السّهرات، ربّما أكثر صمتًا وأقلّ عاطفةً من العادة، سهرة كان فيها النقاش خاملاً، بلا حماسٍ، ومتردّدًا في الغالب. كانت أفكار إيرين تستعيد الطريق بلا انقطاع، وكلّما استحضرت اللّحظة الرهيبة التي وقعت فيها على تلك المبتزّة، تملّكها الرعب. ترفع عينيها عندئذٍ لتستعيد اطمئنانها، فتداعب نظرها الأشياء المحيطة بها، عنصرًا عنصرًا، فلها كلّها روح بالنسبة إليها؛ كلّ واحد منها كان محمّلاً بذكرى ودلالة. عندئذٍ يعود إليها هدوؤها. وكان البندول، الذي يذرع إيقاعُه الفولاذيُّ البطيءُ السّكونَ، يمنح قلبَها، بشكل خفيّ، شيئًا من انتظامه الرّصين اللاّمبالي.

من الغد، بعد ذهاب زوجها إلى مكتبه، وخروج طفليها إلى النزهة، وبقائها أخيرًا وحيدة، فقدت تلك المقابلة الفظيعة، حين

تذكرتها في ضياء بداية هذا النهار، كثيرًا من طابعها المنغّص. تذكرت إيرين في البداية أن غلالة وجهها كانت سميكة، وأن تلك المرأة لم تتمكن إذن من تبيّن ملامحها بدقّة ولا يمكن بالتالي أن تتعرّف عليها. عندئذٍ رسمت بهدوء كل الاحتياطات الواجب اتخاذها. لن تعود بأيّ حالٍ من الأحوال إلى شقّة عشيقها -وهو ما يلغي ربّما أكبر مخاطر ذلك العدوان-. لم يبق إذن غير خطر مقابلة تلك المرأة صدفةً، ولكن ذلك أيضًا غير وارد، لأنّ المرأة لا يمكن أن تكون قد تبعتها ما دامت قد فرّت على متن سيّارة. لم تكن المرأة تعرف اسمها ولا عنوانها، ولا تخشى أن تتيقّن من هويّتها، نظرًا للصورة غير المحدّدة التي تملكها عن وجهها. ولكن حتّى لو حصل ذلك لسوء الحظ، فإن إيرين ستكون مستعدّة. وبما أن الخوف ما عاد يكبس عليها، أيقنت أنه يكفيها أن تحافظ على هيئة هادئة: سوف تنكر كلّ شيء وتزعم ببرود أنّ في المسألة خطأ. وبما أنّه من المستحيل إقامة الحجة على تردّدها على ذلك البيت إن لم تُضبط فيه، فبإمكانها أن تتّهم تلك المرأة بالمساومة. ليس جزافًا أنّ إيرين هي زوجة محامٍ من أكثر المحامين شهرةً في العاصمة، لطالما سمعته يتناقش مع زملائه كي تعلم أن المساومة ينبغي نزع فتيلها في الحال وببرودة دم كبرى، لأن أيّ تردّد من الضّحية، وأقلّ علامة فزع، من شأنهما أن يعزّزا تفوّق الخصم.

كان ردّها الأوّل أن أرسلت إلى عشيقها رسالةً موجزة، تخبره فيها بأنّها لا تستطيع القدوم في السّاعة الموعودة، لا في غد ولا بعده. [عندما أعادت قراءتها، بدت لها نبرة تلك الورقة، التي خالفت فيها

لأوّل مرة كتابتها، باردة قليلاً. كانت ستغيّر الألفاظ الجافّة بألفاظ أخرى، ألطف، حين تذكّرت فجأةً لقاء الأمس وأدركت أن قسوة تلك الأسطر أملاها عليها حنقٌ شديدٌ يزمجر بداخلها.] كان مضنيًا وجارحًا جرحًا عميقًا لعزّة نفسها أن تكتشف أنّها تلت في حضن عشيقها امرأةً بتلك الدّناءة والسّفالة. لم يزد ذلك حنقها إلا شدّة، وإذ تأمّلت ما كتبت، لاحظت في فرح ناقم الكيفيّة الباردة التي أوحت بها أن مجيئها مرهون برغبتها.

تعرّفت على ذلك الشاب خلال سهرة: كان عازف بيانو مشهورًا، ولكن في نطاق محدود. وبعد مدّة قصيرة، ومن دون أن ترغب في ذلك حقًّا أو تفهم لماذا، صارت عشيقته. في الواقع، هي لم تشعر نحوه بانجذابٍ جسديٍّ، وتعلّقها به لم يكن شهوانيًا ولا فكريًّا. منحته جسدها دون حاجة ملموسة وحتى دون رغبة حقيقية، في نوع من التقاعس عن الصّمود أمام طلباته ونوع من حبّ استطلاع قلق. كانت السّعادة الزوجية تلبّي رغباتها الجسديّة، ولم يكن يسكنها ذلك الشّعور الرائج لدى النّساء، بتضاؤل اهتمامها بمسائل الفكر، ولم تكن بأيّ حالٍ من الأحوال بحاجةٍ إلى عشيقٍ. كانت سعيدةً تمامًا بجانب زوج ثريّ، يفوقها من النّاحية الفكريّة، وطفلين. تتمتّع في غير مبالاة بحياة هادئة ومرفّهة لبرجوازية كبرى. ولكن ثمّة مناخات فاترة تجعل سعادات معتدلةً أكثرَ إغاظةً من المصائب، في مثل شهوانية العواصف والزّوابع [بالنسبة إلى عدد من النساء، يكون غياب الرغبة لديهنّ كشؤم عدم إشباع دائم ذي صلة بغياب الأمل]. ليس الشبع

أقلّ تعذيبًا من الجوع، وتلك الحياة المصون، الخالية من المخاطر، كانت تعطيها رغبات مغامرة. [لا شيء في حياتها يبدي أمامها مقاومة. كلّ شيء حولها رفاه، تلقى حيثما حلّت لطفًا ومجاملةً؛ كانت محبوبةً، ومحترمةً في بيتها. ودون أن تشكّ في أن فتور الحياة ذاك ليس مرهونًا أبدًا بالأشياء الخارجية، بل هو دائمًا انعكاس لعدم اكتراث عميق بالعالم، كانت إيرين في وجه من الوجوه تشعر بأن ذلك النعيمَ يُفسدها وينتزع منها الحياة الحقّ.

كانت أحلامها المشوّشة، أحلام مراهقة تتوق إلى الحبّ الكبير وحميّة الأحاسيس، قد أنامها النعيم المطَمْئن لأعوام الزواج الأولى، والأفراح المسلّية لأمومةٍ مبكّرة؛ وها هي تطفو على السّطح، الآن وقد شارفت على الثلاثين. وككلّ امرأة، كانت تحسّ في قرارة نفسها أنّها لا تزال قادرةً على عشق كبير، ولكنّها لم تكن تربط رغبة عيش ذلك العشق بشجاعة قبول الخطر، الذي هو ثمن المغامرة.] كانت تعيش في حال من الرضى لم تتوصّل إلى جعلها أكثر قوّة، حين اقترب منها ذلك العازف الشاب [وكان نهبًا لرغبة عنيفة وغير خافية، مكلّلاً بكلّ رومانسية فنّه]. دخل عالمها البرجوازي حيث الرجال يحيّون باحترام «المرأة الجميلة»، ويكتفون ببعض الطرف البسيطة والملاطفة العارضة دون أن ترغب فيها المرأة. ولأوّل مرّة منذ مراهقتها، أحسّت بأنّها تهتزّ من جديد في عمق كيانها. ولعلّ ما جذبها نحوه ليس سوى مسحة حزن على وجه يبالغ في جعله مهمومًا؛ [لم تدرك أن ذلك كله كان في الواقع مدروسًا تمامًا مثل تقنيته كعازف

على البيانو، أو هيئته المطرقة، وهو مغمومٌ كآبةً، كي يرتجل أمرًا (تدرّب عليه في الواقع مدة طويلة)]. خيّل إليها، وهي التي كانت تحسّ بأنها محاطة فقط ببرجوازيين متخمين، أنها تشتاف في تلك الكآبة ذلك العالم الراقي [الذي يتراءى لها متلألئًا في الكتب ومنتعشًا في المسرح بحياة رومانسية]؛ وتخطّت رغمًا عنها الحدود المعتادة لعواطفها كي تتأمله. تهنئة ألقيت في لحظة حماس وربّما باندفاع أكثر من اللازم، دفعت عازف البيانو إلى رفع عينيه تجاه تلك المرأة، وإذا تلك النظرة الأولى تستولي عليها. ذعرت منها وشعرت في الوقت نفسه بها في الخوف من شهوة حسّية؛ نقاش، بدا لها مشرقًا ومشتعلاً بنار جوفية، شدّ فضولها المتّقد وشحذه على نحوٍ لم تعد معه تحاول تجنّب لقاء ثانٍ خلال سهرة موسيقيّة عامّة. ثم التقيا بعدَها مرّات، حتى كفّ اللّقاءُ عن أن يكون صدفةً. هي [التي لم تولِ حتّى تلك اللحظة سوى قيمة ضئيلة لحكمها الموسيقي، ولم تعلّق فعلاً أهمّية على حساسيتها الفنّية]، كانت تحسّ بنوع من الفخر أن تلعب دورًا مهمًّا في حياة هذا الفنّان الحقيقي الذي لا يفتأ يؤكّد لها أنّها تحسن فهمه ونصحه. ولذلك منحته ثقتها بغير تروٍّ حينما اقترح عليها، بعد بضعة أسابيع، أن تجيء عنده للاستماع إلى مقطوعته الأخيرة، التي يريد أن يعزفها لأجلها هي، هي فقط. ذلك الوعد، ولعلّ نِصفَه كان صادقًا في ذهنه، ضاع في القُبل التي قادت إيرين، المفجوءة، إلى منحه جسدها. اعتراها في البداية فزعٌ من هذا الاقتحام غير المتوقّع للشبق، وتمزّقت هالة الغموض التي تغلّف علاقتهما بعنف؛ إحساسها بالذنب إزاء هذه الخيانة الزوجية التي لم تشأها، لطّفه في جانب مّا،

زهوها اللّذيذ بأنّها أنكرت لأوّل مرّة، وبقرارٍ كانت تظنه قرارها، عالم البرجوازية الذي تعيش فيه. ثم حوّل زهوها إلى غرور حادّ ذلك الفزع الذي استوحته من شناعتها خلال الأيام الأولى. ولكن حتّى تلك الأحاسيس الغامضة لم تكن قويّة إلاّ في الأوقات الأولى. كانت تتمرّد غريزيًا في قرارة نفسها على ذلك الرجل، ولا سيّما ضدّ ما فيه من جديدٍ، ومختلفٍ، والحال أنّ نهَم استطلاعها لا يزداد إلاّ شراهةً. [غرابة ثيابه، الجانب البوهيمي لداخله، حياته المادّية المبعثرة التي تتأرجح على الدّوام بين التبذير والضيق المادي، كل ذلك كان يصدم حساسيتها البرجوازية. وكما هو الشأن لدى أغلب النساء، ينبغي أن يكون الفنّان في نظرها بالغ الرومانسية عن بعد، ولكن ذا تصرّفٌ حسنٌ في المجالس الخاصّة: وحشٌ رائعٌ، محبوسٌ وراء قضبان آداب السلوك.] ولهه، الذي كان يُسكر إيرين حينما يعزف، صار يثير القلق عند الاختلاء؛ في الحقيقة، هي لم تكن تحبّ عناقه المتلهّف والعنيف، وكانت تقارن رغمًا عنها خشونته المتسلّطة مع احتدام زوجها، الذي لا يزال مليئًا بالتّحفظ والاحترام بعد سنوات. ولكن ما إن اقترفت الخيانة الأولى، حتى صارت تعود إلى بيت عشيقها بانتظام، دون أن تكون مشبَعة أو خائبة، منساقة بنوع من الإحساس بالواجب وقوة العادة. [وليس من النّادر حتى في أوساط المتحرّرات وعاهرات القصور، إذ كان ثمّة من أولئك النسوة من يمعنّ في البرجوازية بشكلٍ يجعلهنّ يحرصن على النّظام حتى في الزنا، ويدخلن نوعًا من الرفاه الأليف على السّلوك المشين، ويجهدن بأناة، دون أن يبدين ذلك، في مزج العواطف الأشدّ خصوصيّةً بأمور الحياة اليوميّة.] بعد

بضعة أسابيع، كانت قد جعلت لذلك الشابِّ، عشيقِها، مكانةً محدّدةً في حياتها، وتخصّه بيوم في الأسبوع، مثل حَمَّيْها؛ ولكن تلك العلاقة الجديدة لم تجعلها تتخلّى عن نمط حياتها المعتاد، أي أنها لم تضف إليه في الواقع سوى عنصرٍ واحد. وفي وقتٍ وجيز كفّ هذا العشيق عن إحداث أي تغيير في النسق الهادئ لوجودها، بل كان ينمّي في وجه من الوجوه سعادتها المعتدلة مثل طفلٍ ثالثٍ أو سيّارة، وما لبثت أن بدت لها تلك المغامرة في مألوف المتع المشروعة.

الآن وقد أُلْفت نفسها لأوّل مرّة في مواجهة الخطر وأحسّت أنها ستدفع الثمن الحقيقي للمغامرة، بدأت تَعُدّ في مَسكنةٍ قيمتَها. هذا الهمّ الأوّل بدا لها، كامرأة حباها القدر، ودللتها أسرتها، وكادت تخلو من الرغبات بسبب ثروتها، مفرطًا بالنّسبة إلى طبيعتها الرّهيفة. منذ البداية، كانت ترفض أن تتخلّى ولو قليلاً عن راحة بالها، بل كانت في الواقع مستعدّةً أن تضحّي دون تردّد بعشيقها مقابل راحتها الخاصّة.

جاءها ساعٍ بردّ الشاب في أصيل اليوم نفسه، وقد كتبه في روعٍ وتوتّرٍ، وأسلوبٍ متقطّعٍ. تلك الرّسالة، التي يتضرّع إليها فيها بنبرةٍ متأثّرةٍ، ويشتكي، ويتّهمها، زعزعت من جديدٍ قرارها بوضع حدٍّ لتلك المغامرة. كان ذلك العنف يدغدغ كبرياءها، وذلك اليأس المهتاج يفتنها. كان عشيقها يتوسّل إليها بأكثر العبارات إلحاحًا كي تقبل حتّى لقاءً قصيرًا، لكي يتمكّن على الأقلّ من تبرير سلوكه، إن كان قد خدشها بكيفيّة أو بأخرى دون أن يدري. عندئذٍ أغرتها هذه اللّعبة الجديدة. واصلت الجفاء، والتمنع دونما سبب كي تكون

مرغوبةً أكثر. [كانت تحسّ أنها في قلب هوجة كبرى، وككلّ النّاس الباردين بطبعهم، كانت تجد متعة في أن تكون محاطةً بلهب الشوق ولا تحترق.] اقترحت عليه إذن أن تلقاه في قاعة شاي حيث كان لها، كما تذكرت الآن فجأةً، لقاء مع أحد الممثلين حينما كانت فتاة. والواقع أن تلك المقابلة السّليمة النيّة تبدو لها الآن صبيانية. تبسّمت في داخلها وهي تفكّر أن من الغرابة أن ترى الرومانسية تزهر من جديد في حياتها، والحال أنها ذبلت طوال أعوام زواجها. كانت في قرارة نفسها تكاد تكون مبتهجةً لوقوعها بالأمس وجهًا لوجه مع تلك المرأة الشّرسة، لأنها أحست للمرة الأولى منذ زمن بعيد بانفعال حقيقي، كان له من القوة والإثارة ما جعلها لا تزال حتى الآن مهزوزة في أعماقها، وهي التي نادرًا ما تكون متوتّرة.

ارتدت هذه المرّة فستانًا داكنًا غير لافتٍ، وغيّرت قبّعتها لتزرع الفوضى في ذكريات تلك المرأة، إذا ما صادفتها. كانت تستعدّ لوضع غلالة وجه، لكَيْلاَ يتعرّف عليها أحد، ولكنها دفعتها، بحركة تحدّ مباغتة. هل كان عليها أن تخشى الخروج إلى الشارع، هي، المرأة المحترمة ذات الاعتبار، هل ينبغي أن تخشى شخصا لا تعرفه البتة؟ [وإذ امتزجت بخشية الخطر، أحسّت انذهالاً غريبًا، رغبة في العراك مثيرة، كحالنا حين نضع الأصابع على حدّ خنجرٍ أو ننظر في فوهة مسدس، أو في غمدٍ أسوَد يختبئ فيه الموت. رجفة المغامرة كانت عنصرًا غير معتاد في وجودها المحميّ، وكرغبة في اللّعب، كانت تريد أن تجرّبه ثانيةً؛ كان إحساسًا عجيبًا يوتّر أعصابها بشكل يكهرب كامل جسدها.]

استبدّ بها جزءٌ عابرٌ، خلال ثانية، عندما خرجت إلى الشّارع، رجفة عصبيّة اهتزّ لها جسدها، كما نحسّ عندما نبلّل طرف رجلنا بالماء، كي نختبرهُ، قبل أن نندفع نحو الأمواج. ولكن ذلك البرد لم يعبرها سوى لثانية، وإذا فرحةُ حياةٍ غريبةٌ تغمرها دفعةً واحدةً، رغبة السّير بخطى حثيثة، خفيفة، مرنة، مع نشاط ووقار لم تعهدهما فيها. كادت تتأسّف لكون قاعة الشّاي قريبة، لأن إرادةً مجهولةً كانت تدفعها إلى الحفاظ على تلك الهيئة، تحت سحر المغامرة الجذّابة والغامضة. ولكن لم يكن لديها سوى ساعة تخصّصها لهذا الموعد، واعترتها دون أن تشعر قناعةٌ ممتعةٌ بأنّ عشيقها في انتظارها. عندما دخلت، كان جالسًا في ركن فهبّ واقفًا، في لهفة اعتبرتها سارّةً ومحرجةً في الوقت نفسه. اضطرّت إلى أن تطلب منه تخفيض صوته، لأنّه، في بلبلة أحاسيسه المغتلية، كان يغرقها بفيضٍ من الأسئلة والعتاب. ودون أن تذكر لأيّ سببٍ حقيقيّ لم تَعُد، اكتفت بإيحاءاتٍ زاد عدمُ دقّتها في إلهاب الشاب. ظلّت هذه المرّة منيعةً على مطالبه وبخيلةً بالوعود، لأنّها أحسّت كم كان هذا الانسحاب، هذا الرفض الغامض والمفاجئ، يشحذ رغبته... وعندما غادرته، بعد نصف ساعةٍ من الجدَل المتّقد، دون أن تجود عليه أو تعدَه بأدنى حنانٍ، أحسّت بداخلها نارًا غريبةً جدًّا، لم تعرفها إلاّ حينما كانت فتاة. بدا لها أنّ شعلةً صغيرةً متّقدةً تحمرّ في أقصى أعماقها، ولا تنتظر غير ريحٍ تجلِد تلك النّار كي تضرمها من رأسها إلى قدميها. كانت تلتقطُ عند مرورها كلّ نظرةٍ يوجّهها العابرون نحوها. والنّجاح الذي كان لها مع الرجال، ولّد لديها رغبةً في التّطلع إلى وجهها، دفعتها إلى

التوقّف أمام مرآة بائع أزهارٍ لتمتّع النّظر بجمالها، في إطارٍ من ورد أحمر وبنفسج يتلألأ ندى. [مشرقة، تأمّلت نفسها، شابة ورشيقة؛ شفاهٌ شهوانية شبه مفتوحة، هناك، تعكس لها بسمة مطمئنة، ولما انصرفت، خيّل إليها أنّ لها جناحين. كانت رغبة تحرّر جسديّ، رغبة في الرقص أو في السّكر، تُفسد في مشيتها انتظامها المعتاد. وهي مارّة بهمّة أمام كنيسة القدّيس ميخائيل[1]، انزعجت لسماع رنين السّاعة الذي يذكّرها بالعودة إلى بيتها، في عالمها الضيّق، والمرتّب بإحكام.] منذ مراهقتها، لم تشعر قطّ بأنّها خفيفة كتلك اللّحظة، متفتّحة لكلّ الأحاسيس؛ لا الأيّامُ الأولى من حياتها الزوجيّة، ولا عناق عشيقها كهرَب جسدَها بهذه الكيفيّة، حتّى باتت لا تحتمل أن تبدِّد في حياة بالغةِ النظام تلك الخفّةَ الرائعةَ. واصلت طريقها بغير نشاطٍ. ولمّا وصلَت أمام بيتها توقّفت مرّة أخرى متردّدَةً، لتتنفّس ملءَ رئتيها ذلك المناخ الحامي، تلك السّاعة المربكة، لتشعر بصعود آخر موجة من المغامرة إلى عمق قلبها.

عندئذٍ لمس أحدهم كتفها. التفتت. «ولكن... ماذا تريدين في النهاية؟» غمغمت مرتعبةً، إذ رأت الوجه المقيت بغتةً. وازداد رُعبها إذ سَمعت نفسها تنطق بتلك الكلمات المشؤومة. وهي التي وَعدت نفسَها بألاّ تُقرّ بمعرفتها بتلك المرأة إذا ما صادفتها مرّة أخرى، وأن تنكر كلّ شيءٍ، أن تصمُد أمام تلك المبتزّة... الآن، فات الأوان.

«منذ نصف ساعةٍ وأنا أترقّبك هنا، مدام فاغنر!»

---

(1) Michaeler Kirche أقدم كنيسة في فيينا بنيت بين عامي 1219 و 1221.

ارتجفت إيرين لسماع اسمها. كانت المرأة تعرف اسمها، وأين تسكن. ضاع الآن كلّ شيءٍ، لم يعد ثمّة مجالٌ للنّجاة، باتت تحت رحمتها. [ازدَحمت الكلمات على شفتيها، تلك الكلمات الموزونة والمحسوبة بعنايةٍ، ولكنّ لسانها انعقَد ولَمْ يعُدْ قادرًا على النّطق بأدنى صوتٍ.]

«مضى الآن نصف ساعةٍ وأنا أترقّب، مدام فاغنر!»

أعادت المرأة كلماتها بنبرة لوْمٍ وتهديدٍ.

«ماذا تريدين... ماذا تريدين مني؟»

«تعرفين جيّدًا، مدام فاغنر» - ارتعدت إيرين من جديد وهي تسمع اسمها - «تعرفين جيّدًا لماذا أنا هنا.»

« لم أره من بعدها قطّ... والآن دعيني... لن أراه... أبدًا...»

انتظرت المرأة بهدوءٍ أن يمنع التأثّر إيرين من الاسترسال. ثمّ قالت لها بجفاءٍ، كما تكلّم مخدومًا:

«لا تكذبي! لقد تبعتك حتّى قاعة الشاي». ولمّا لمحَتْ أنّ إيرين نكصَت إلى الوراء، أردفَت ساخرةً: «ذلك أنّي لا شغل لي ولا شاغل... طردوني من المتجر! لأنّه لم يعد هناك عمل، كما يقولون، ثم إن الظّرف صعبٌ. عندئذٍ، لعمري، نغتنم الفُرص، هكذا، ونتفسّح أيضًا قليلاً... على غرار السيّدات الفاضلات!»

قالت ذلك في لؤم باردٍ أصاب إيرين في الصّميم. أحسّت نفسها منزوعة السّلاح أمام العنف الوحشيّ لهذه الصّفاقة، وقد ملَكها الخوف من أن ترفع المرأة صوتها من جديد أو أن يمرّ زوجها

صدفةً، كما يملكها دوار. عندئذٍ سيضيع كلّ شيءٍ. بسرعةٍ، فتّشت في معطفها، فتحَت حافظة نقودها وأخرجَت كلّ ما استطاعت أصابعها مسكَه. [باشمئزازٍ، دسّته في تلك اليد التي تقدّمت دون عجلٍ، منتظرةً غنيمتها في صبر وثقة وقِحَيْن.]

ولكنّ اليد الصّفيقة لم تنزل في خشوعٍ مثل المرّة السّابقة، حينما أحسّت المال؛ ظلّت هناك، ثابتةً في الهواء، مفتوحةً مثل مخلبٍ.

«أعطيني الحافظة أيضًا حتّى لا أضيع النقود!» أردفَت في زمّةٍ ساخرةٍ وضحكةٍ كالنقيق.

نظرت إليها إيرين في عينيها، ولكن لمدّة ثانية واحدة. كانت تلك الصّفاقة الوقحة، السّوقية، لا تحتمل. شعرت باشمئزاز عميق يجتاح جسدها، مثل ألمٍ حارقٍ. أن تذهب، فقط أن تذهب، ألاّ ترى هذا الوجه بالذّات ثانيةً! وهي تشيح برأسها، مدّت لها الحافظة الثّمينة بسرعةٍ، ثم صعدَت المدرج جريًا، مدفوعةً بالرعب.

وبما أنّ زوجها لَمْ يَعُدْ بعدُ، استطاعت أن ترتمي على الكنبة. ظلّت مستلقيةً عليها، جامدةً، كأنّها فقدت وعيها [أصابعها فقط كانت تعبرها ارتجافات عنيفة تخضّ ذراعيها حتى الكتفين، فيخضع جسدها للهجوم العنيف لذلك الرعب المروّع]. ولم تتمالك نفسها بجهدٍ جهيدٍ إلاّ حينما سمعَت في الخارج صوتَ زوجها، إذ سارت متضعضعةً حتى الغرفة الأخرى، غائبة الذهن، في حركاتٍ آليةٍ.

صار الرعب الآن يسكن بيتها لا يُغادره. طوال تلك السّاعات الخاوية، التي تعيد في شكل أمواجٍ إلى ذاكرتها صور ذلك اللّقاء

الفظيع، باتت تعي بجلاءٍ أنّ وضعها لا أملَ من ورائه. تلك المرأة تعرف اسمها وعنوانها -دون أن تتوصّلَ إيرين إلى أن تفهم كيف- وبما أنّ محاولاتها الأولى كلّلت بالنّجاح، فأغلب الظن أنها لن تتأخّر عن استعمال أي وسيلة لاستثمار ما تعرف وممارسة ابتزاز دائم. خلال سنوات وسنوات، ستكون مثل كابوسٍ يُثقل حياتَها ولن يخلّصها منه حتّى الجهد الأشدّ يأسًا؛ لأنّ إيرين، حتّى وهي ثريّةٌ وزوجة رجلٍ غنيٍّ، لا يمكنها، دون إعلام زوجها، أن تجمع مبلغًا كبيرًا كي تتخلّص نهائيًّا من تلك المرأة. من ناحية ثانية، تعلّمت، من خلال أحاديث زوجها، ومن خلال قضاياه، أنّ التزامات أشخاصٍ سفلةٍ لئامٍ ووعودهم ليس لها أدنى قيمة. كانت تُقدّر أنّ بإمكانها توقّي الكارثة شهرًا آخر وربّما اثنين، ثم ينهار بنيان سعادتها العائلية؛ والتأكّد من كونها سوف تجرّ المبتزّة إلى السّقوط كان قناعةً تافهةً. [فماذا يمكن أن تمثّله ستّة أشهر سجنًا بالنّسبة إلى امرأة منحلّة قطعًا ومحكومٌ عليها سلفًا دون شكّ، مقارنةً بهذه الحياة التي ستفقدها وهي الوحيدة، وقد باتت تعي ذلك بمنتهى الرعب، التي أمكَنها عيشها. أن تعيد حياتها، وقد ذوت وتسربلت بالعار، بدا لها أمرًا غير مقبولٍ، لديها هي التي قنعت حتى السّاعة بهدهدة الحياة النّاعمة، دون أن تساهم ولو بنزرٍ ضئيلٍ في صنع مصيرها بنفسها؛ ثمّ ثمّة طفلاها، زوجها، بيتها، كلّ تلك الأشياء التي لم تشعر إلاّ الآن، لحظة فقدانها، كم كانت جزءًا لا يتجزّأ من حياتها، ومنها هي. داخلها فجأةً إحساس بأنّ كلّ ما اكتفت بلمسه عند مرورها لمسًا خفيفًا بفساتينها صار ضروريًا ضرورةً مؤلمةً؛ وكان يبدو لها أحيانًا

من غير المعقول وغير الملموس كما في الأحلام أن تتخيّل أن مغامِرة نكرة، لابدة في ركن مّا من الشارع، يمكن أن تدمّر بكلمةٍ واحدةٍ هذه الألفة الدّافئة.]

كانت المصيبة محتومةً، صارت مقتنعةً بذلك قناعةً مرعبةً، ولا مهرب منها. ولكن... ما الذي سيحدث؟ كانت تجترّ ذلك السّؤال من الصّباح وحتّى المساء. قد تصل رسالة، ذات يوم، إلى زوجها. تراه من الآن يدخل ذابلاً، مكفهرّ النظرة، يمسكها من ذراعها، ويمطرها أسئلةً... ولكن بعد ذلك... ماذا سيحدث بعد ذلك؟ ماذا سيفعل؟ هنا، تتوارى الصّور خلف ظلمات حيرةٍ صمّاء قاسيةٍ. لا تميز شيئًا فيما وراءها، وتضيع تخميناتها في قيعانٍ مدوّخةٍ. ولكن في أثناء تلك التأمّلات المظلمة، خطَر ببالها خاطرٌ جمّدها؛ كانت في الواقع لا تعرف زوجها جيّدًا، وهي عاجزةٌ تقريبًا عن توقّع قراراته. كانت قد تزوّجته بتحريضٍ من والديها، ولكن دون ممانعةٍ، مع إحساس نحوه بمودّةٍ لم تخيّبها الأعوام؛ كانت تعيش معه منذ ثماني سنوات، في نسقٍ هادئٍ لسعادةٍ غامرةٍ؛ أعطاها طفلين، وبيتًا، وعددًا من أوقات التوادّ الجسدي. ولكن الآن وهي تتساءل كيف سيكون سلوكه، اتضّح لها إلى أيّ حدٍّ ظلّ غريبًا عنها، وغير معروف تمامًا. [وهي تستعرض في اضطرابٍ تلك الأعوام الأخيرة، وكأنّها تُفتّشها بكشّافاتٍ ذات نورٍ شبحيّ، تبيّنت أنّها لم تحاول قطّ معرفة شخصيّته الحقيقيّة، وأنّها طوال تلك المدّة لا تعرف حتّى ما إذا كان عنيدًا أمْ متسامحًا، صارمًا أمْ حنونًا. مع إحساسٍ بالذنب وَلَدتْهُ في داخلها تلك الحيرة المرعبة

والقاتلة، أقرّت، بعد فوات الأوان، للأسف! أنّها لم تعرف من زوجها غير ملمحٍ سطحيٍّ: كيانه الاجتماعيّ، وليس طبيعتَه العميقة التي سيخرج منها القرار في تلك السّاعات التراجيدية. جعلَت تبحث رغمًا عنها عن أحداثٍ صغيرةٍ ومؤشّراتٍ لكي تتذكّر أيّ رأيٍ أصدَر حوْلَ مسائل من ذلك النّوع، خلال المناقشات. وفوجئت مستاءةً أنّه لم يحدّثها قطّ عن قناعاته الشّخصيّة. والواقع أنّها لم تجادله في مواضيع بهذه الخصوصيّة.] عندئذٍ بدأت تتفحّصُ حياةَ زوجها في أدقّ التّفاصيل الكفيلة بإفادتها علمًا عن طبعه. كان الخوف قد بات يضرب مثل مِطرقةٍ بابٍ كلَّ ذكرى صغيرةٍ، كي يجد مدخلاً إلى غُرَف قلبه السرّية.

[صارت متهيئةً لترصّد أدنى عباراته، وتنتظر عودته بتلهّفٍ محمومٍ. كان يحيّيها وهو لا ينظر إليها إلا لمامًا؛ ولكن في حركاته، حين يلثم يدها أو يداعب شعرها بأنامله، كانت تحسّ، وهي التي تخشى الاندفاعات الجامحة، رقّةً تعكس حنانًا عميقًا. كان دائمًا يحدّثها برصانةٍ، دون أن يبدي غضبًا أو نفاد صبرٍ، وكلّ سلوكه كان ينضح بالهدوء واللّطف؛ ولكنّها في قلقها، جعلت تفترض أنّ ذلك لا يختلف عن سلوكه مع الخدم، ومن المؤكّد أنّه أقلّ عمقًا ممّا يظهره لطفليه، بحميّةٍ نشيطةٍ على الدّوام، تتناوب بين ابتهاجٍ وشغفٍ. اليوم أيضًا، سأل طويلاً عن مشاكل الخدم، وكأنّه يعطي زوجته فرصةً لإخباره بمشاغلها الخاصّة، والحالُ أنّه يخفي عنها مشاغله. وهي تلاحظه، أدركت لأوّل مرّة كم يراعيها، وكم يتوخّى الرقّة في إبداء اهتمامه

بعباراتها اليوميّة، التي تكتشف فجأةً سذاجتها وتفاهتها المرعبة. لم يعهد إليها بشيء يخصّه فلم تستطع أن تشبع فضولها، ولا رغبتها في الاطمئنان.]

ولمّا كان لا يرشَح شيء من كلامه، سألت صورته وهو يقرأ جالسًا في أريكته تحت الضوء السّاطع للنّور الكهربائي. نظرت إليها وكأنّها وجه غريب، وحاوَلَت أن تحدس تحت تلك القسمات الأليفة، التي صارت فجأةً غريبة، الشّخصيّة التي أخفاها عنها طيلة ثماني سنواتٍ من الحياة المشتركة. بدا الجبين شهمًا ذكيًّا، كأنّه مشكّلٌ بجهدٍ كهربائي قويٍّ، ولكنّ الفم كان صارمًا عنيدًا. في تلك القسمات الشّديدة الرجولة، كلّ شيء يعبّر عن الصلابة، والقوّة، والطاقة. استغربت أن رأت فيها مسحة جمالٍ، وهي تتأمّل بإعجابٍ تلك الرّصانة المكبوحة، وتلك البساطة الواضحة في الطبع [الذي لا تزال ترى حتّى الآن، في نوع من الحماقة، أنّه لا يثير الإعجاب كثيرًا، والذي لا ترفض أن تستبدل به بشاشة دافئة]. ولكن العينين، اللتين لا شكّ تحتويان على السرّ الحقيقي، كانتا تنحطّان على الكتاب، في منَعة من تقصّيها. ما اضطرّها إلى توجيه نظراتها الباحثة إليه من جانب، [وكأنّما كتبت على تقاطيع ذلك الخط الصيغة التي قد تنطق بالعفو أو الإدانة على هذا المنظر الجانبي الغريب الذي تفزعها صلابته، وإن كانت عزيمته قد بدت لها لأوّل مرّة ذات جمالٍ مخصوص]. أحسّت فجأةً، في لذّةٍ وفخرٍ، أنّها تحبّ النّظر إليه. [في اللّحظة التي صحا في داخلها ذلك الإحساس، انتابها نوعٌ من التمزّق في الصّدر، إحساس

ملتبسٌ، بين أسف لترك شيء يُفلت، وانفعالٍ شهواني تقريبًا، كان من القوّة ما جعلَها لا تتذكّر أنّ هذا الجسد قد منحها مثيلاً]. في تلك اللحظة، رفع رأسه. استعجلت التراجع إلى الظلّ، حتى لا يوقظ الإلحاحُ الحارقُ لنظراته نحوها شكوكَه.

مرّت الآن ثلاثة أيّام على لزومها البيت لا تغادره. لاحظت، في نوع من الضيق، أنّ حضورها الذي صار فجأةً دائمًا لفَتَ انتباه الآخرين، إذ من النّادر أن تبقى في البيت عدّة ساعاتٍ، فما البال بعدّة أيّامٍ. [وبما أنّها لا تملك حسّ ربّة بيتٍ، وأنّ رخاءها يُعفيها من المشاغل المنزليّة الصّغرى، التي لا تعرف كيف تهتمّ بها، فإنّ شقّتها لم تكن سوى مكان تلجأ إليه لبضع لحظات، فيما الشارع، والمسرح، والاجتماعات الحضرية، المناسبة للقاءاتٍ من كلّ نوعٍ، مع ما يجيء من أشياء جديدةٍ باستمرارٍ، هي عالمها المفضّل، لأنّ التمتّع بتلك الملذّات لا يستوجب جهدًا شخصيًا. تكون الأحاسيس مستثارةً على الدّوام، ولكن تظلّ العواطف غافيةً. طريقته في التّفكير تربط إيرين بهذا المجتمع الرّاقي للبرجوازية الفِيَينيّة. يبدو جدول أوقاته اليومي مرهونًا باتفاقٍ سرّي، حيث يلتقي كلّ أعضاء هذه الرابطة الخفيّة في الأوقات نفسها ليهتمّوا بالأشياء نفسها. وعادةُ التقاء بعضهم ببعض وملاحظة بعضهم لبعض ومقارنة بعضهم بعضًا صارت تقوم شيئًا فشيئًا مقام علّة وجود. عندما يجد المرء نفسه معزولاً بلا سند، بعد أن تعوّد على حياة اجتماعيّة طائشةٍ، فإنّه يفقد توازنه، دون حصّتها المعتادة من الأحاسيس التافهة بامتياز، وإن كانت ضرورية، تتمرّد

الحواسّ وتنحرف العزلة إلى عدوانية متوتّرة ضدّ الذّات. كانت تحسّ على عاتقها ثقلَ الزّمن اللاّمتناهي، ولم يعد للسّاعات، دون وجهتها المعتادة، أدنى معنى. عاطلة، منفعلة، كانت تذرع بيتها وكأنّها وسط جدران زنزانة؛ الشّارع، العالم، اللّذان كانا حياتها الحقّ، باتا محظورين عليها، مثل ملاكٍ ذي سيف من نار، كانت المبتزّة تقف فيهما مهدّدةً.]

أوّل من لاحظ ذلك التغيّر طفلاها، ولا سيّما ابنها الأكبر فقد عبّر ببراءةٍ وصراحةٍ محرجتين عن استغرابه من رؤية أمّه في البيت كلّ هذا الوقت. أمّا الخدم، فقد اكتفوا بالتهامس وتبادل الفرضيّات مع المربّية. عبثًا حاولت إيرين تفسير حضورها المفاجئ، متذرّعةً بأكثر المشاغل تنوّعًا، بكثير من المهارة أحيانًا، [ولكن طبيعة التفسيرات المصطنعة كشفت لها إلى أي حدٍّ صارت عديمة الفائدة في دائرتها نفسها، بسبب عدم اكتراثها بما يجري طوال سنين. كلّما حاولت القيام بشيء مّا، وُوجِهت بمقاومة الأخريات إذ يرفضن جهودها المفاجئة، ويعتبرنها مثل مسٍّ معيبٍ بصلاحيّاتهن. المكان مشغول حيثما ولّت؛ بل إنّها صارت هي نفسها، في غياب أيّ عادةٍ لها، جسدًا غريبًا في بيتها. لذلك لم تعرف كيف تشغل نفسها ولا كيف تزجّي وقتها. لم تستطع حتّى التقرّب من ولديها، وقد باتا يرتابان من أن يكون هذا الاهتمام الحادّ المفاجئ وسيلةً جديدةً لمراقبتهما، وأحسّت بالخجل حينما جرؤ ابن السّابعة على سؤالها بوقاحةٍ لمَ لا تخرج للنّزهة.] كلّما رامت إفادةً، أزعجت نظامًا قائمًا، وإن تعاطفت بدا الأمر مشبوهًا. ثمّ إنّ عدَم امتلاكها أيّ مهارةٍ جعَل حضورها الدّائم أقلّ ظهورًا؛

كأن تبدي تحفّظًا معقولاً، وتنعزل في غرفةٍ مع كتابٍ أو عملٍ تنجزه. وفي كلّ مرّة ينتابها إحساسٌ عنيفٌ نوعًا مّا وينعكس قلقها في شكل انفعالٍ يطردها تباعًا من غرفة إلى أخرى. وكلّما سمعت رنين الهاتف أو جرس الباب، تنتفض و[تتفاجأ بكونها تتلصّص على الشارع من خلف السّتائر، متلهّفةً للقاء أناس وفي الأقلّ مشاهدتهم، توّاقةً إلى الحرّية، ولكن مرتعبةً من أن ترى فجأةً، من بين المارّة، وجه التي تطاردها حتّى في أحلامها ينحطّ عليها.] كانت تشعر بأنّ حياتها الهادئة تنفرط وتفرّ منها بغتةً، وذلك العجز يدفعها إلى استشفاف تقويض حياتها كلّها. تلك الأيام الثلاثة التي قضتها في زنزانة بيتها بدت لها أطول من أعوام زواجها الثمانية.

ولكنّها في المساء الثالث قبلَت دعوةً من زوجها كانت وافقَت عليها منذ أسابيع، ولا يمكنها الآن رفضها، في اللّحظة الأخيرة، دون سببٍ معقولٍ. ثمّ ينبغي لها أن تكسر في النهاية حواجز الرعب الخفية التي تسجن حياتها، إذا كانت لا ترغب في الموت. كانت في حاجة إلى رؤية الناس، أن تهرب ساعات من نفسها، من وحدة الخوف الدّافعة إلى الانتحار. وأين ستكون في مأمنٍ أفضل من بيت آخر لدى أصدقاء؟ أين ستكون أحسن لجوءًا من ذلك الاضطهاد الخافي الذي يحاصرها حيثما ذهبت؟ ارتجفت لثانيةٍ واحدةٍ، ثانية خروجها من بيتها. كانت تلك أوّل مرّة تجد نفسها في الشارع منذ لقائها بتلك المرأة، التي قد تكون هنا، في مكان مّا، بصدد ترصُّدها. مسكت بعفوية ذراع زوجها، أغمضت عينيها، وحثّت الخطى

لتقطع الأمتار القليلة حتى السيّارة التي كانت في انتظارهما على حافّة الرّصيف. وعندما راحت السّيارة تنهب الطريق عبر الشوارع المظلمة الخالية، أحسّت أنها في مأمنٍ جنب زوجها، وأنّ الثقل الذي تنوء به قد زال. لمّا صعدت مدرج البيت الآخر، أحسّت بالأمان. الآن، ولبضع ساعاتٍ، يمكن أن تكون على حالها كما كانت طوال كل تلك السنين، لا مباليةً، مرحةً، ولكن بفرحٍ أكثر وعيًا وقوّة، فرح من خرج من زنزانته إلى الشّمس. هنا يقوم سورٌ ضدّ كل اضطهادٍ، هنا لا يمكن للكره أن يدخل. لم يكن هناك غير أناسٍ يحبّونها، ويحترمونها، ويقدّرونها، أناسٍ أنيقين، بلا نية مضمرة، وسط آلاف من أضواء الطيش المحمرّة، في عالم من المتعة سيحملها من جديدٍ، هي أيضًا. عندما دخلت، أحسّت من أنظار الآخرين أنّها جميلة، وتلك القناعة التي حرمت منها طويلاً زادتها حسنًا. [كم هذا بديع، بعد كلّ أيّام الصّمت تلك حيث لم يخطر ببالها غير فكرةٍ وحيدةٍ وعقيمةٍ، حادّةٍ مثل سكّة المحراث، أضنتها تمامًا! كم هو جميل أن تسمع من جديد كلمات مجاملة، منشّطةٍ، تكهربها، وتولِّد تحت بشرتها وخزًا وتجلدُ دمها. كانت هناك، مندهشةً. شيءٌ قلقٌ كان يرجف في صدرها ويروم الانفلات. فهمت أخيرًا أنّها ضحكةٌ مسجونةٌ تريد أن تتحرّر. انفجرت مثل سدّادة زجاجة شمبانيا، وتحوّلت إلى تنغيماتٍ قصيرةٍ مرصّعةٍ: كانت تضحك، تضحك... وينتابها في بعض الأحيان خجلٌ من إفراطها في السّكر، ولكن لا تلبث أن تعاود الضّحك. كانت أعصابها المطلقة العنان تختلج، وكأنّها مكهربة، وحواسّها المهتاجة تستعيد قوّتها وعنفوانها. لأوّل مرّة منذ عدّة أيّام

أكلت بشهية حقيقية وشربت كظمآنة.

روحها المعكّرة، المتعطّشة للصّحبة، كانت تستنشق الحياة والمتعة.] في القاعة المجاورة جذبتها موسيقى تسلّلت بعمقٍ تحت بشرتها اللاّهبة. كان النّاس قد بدؤوا يرقصون، ولم تشعر إلاّ وهي وسط الحلبة. رقصت كما لم ترقص قطّ. كان ذلك الدوران يحرّرها من كلّ ثقلها، فيبلغ الإيقاع أعضاءها ويعبر جسدها في حركة تلهبها. وعندما تتوقف الموسيقى، يبدو لها الصمت مؤلمًا، وينسرب الضيق كثعبان على طول أعضائها المرتعدة، وكما هي الحال في ماء المغطس حيث يترك المرء نفسه كي يُحمَل ويُنعَش ويُلطَّف، كانت ترتمي من جديدٍ في الدوامة. لم تكن حتّى تلك السّاعة غير راقصةٍ متواضعةٍ، مفرطةٍ في التحفّظ والتحسّب، شديدة التّصلب والحذر في حركاتها، ولكن سكر ذلك الفرح الغامر حرّر جسدها من كلّ احتراسٍ. غُلّ الحشمة والعقل الذي كان يحصر في العادة رغباتها الأكثر جنونًا، انقطع الآن، فتحرّرت من كلّ عائقٍ، وأحسّت أنها تذوب سعادة. كانت ترى حولها أذرعًا وأياديَ، تدانيًا وتباعدًا ونفحات كلامٍ وضحكاتٍ مثيرةٍ، والموسيقى تنبض في عروقها. كان جسدها موتورًا بكامله، إلى حدٍّ صارت فيه ثيابها تحرق جلدها فتودّ دون وعيٍ أن تمزّق كلّ تلك الحجُب كي تحسّ، وهي عارية، تلك النشوة تنفذ إليها بعمقٍ أكبر.

«إيرين، ما بك؟» التفتت مترنّحةً، وفي عينيها ضحكة، وهي لا تزال لاهبةً من وقع ضمّة مُراقصها. نظرةٌ قاسيةٌ وباردةٌ من

زوجها الذي كان يركّز فيها لحظه في ذهول أصابتها في الصّميم. ارتعبت منها. هل بالغت في إظهار شغفها؟ هل فضحها هيجانها؟

«ولكن... ماذا تقصد يا فريتز؟» غمغمت، وقد باغتها عنف نظرته المفاجئ الذي يبدو أنه يزداد غوصًا في أعماقها باطّرادٍ، والذي أحسّته في أكثر كيانها خصوصيّة، في القلب تقريبًا. ودّت أن تصرخ أمام تينك العينين اللتين تفتّشانها بعنادٍ.

«هذا لعمري أمرٌ غريب»، تمتم أخيرًا. كان في صوته أثرُ استغراب. لم تجرؤ على سؤاله عمّا يعنيه بقوله ذاك، ولكن شملت رجفةٌ أعضاءها حينما ابتعد بغير كلامٍ، وأبصرت كتفيه العريضتين القوّيتين الضّخمتين، تعلوهما رقبةٌ ذات عضلات من فولاذٍ. كأنه قاتل... خطر ذلك ببالها: خاطرٌ مجنونٌ سرعان ما طردته. كأنّها تراه الآن لأوّل مرّة، هو، زوجها، امتلأت رعبًا من كونه قويًا ومهيبًا.

عادت الموسيقى. تقدّم نحوها رجل. أمسكت ذراعه بتلقائيةٍ. ولكنّ كل شيء صار لديها ثقيلاً، ولم تفلح تلك النغمة المرحة في تحريك أعضائها المخدَّرة. كان العبء الذي يرهق قلبها يثقل ساقيها. كل خطوة تؤلمها. اضطرّت أن ترجو من مراقصها أن يتركها. وهي تبتعد، أجالت النّظر لترى ما إذا كان زوجها في الأنحاء. وانتفضت. كان خلفها بالضّبط، كأنّه ينتظرها، ونظره اللاّمع يصطدم من جديدٍ بنظرها. ماذا يريد؟ ماذا يعرف؟ سحبت نحوها فستانها بحركة

عفويةٍ كأن من واجبها أمامه أن تستر رقبتها العارية. كان صمت زوجها أكثر إلحاحًا من نظرته.

«هل ننصرف؟» سألت قلقةً.

«نعم.» كان صوته غليظًا فظًّا. سبقها. رأت من جديدٍ رقبته العريضة، المهدِّدة. لُفّت في فروها، ولكنها ظلّت مقرورةً. بقيا صامتين طوال المسافة وهما جالسان جنبًا إلى جنبٍ. لم تكن تجرؤ على النّطق بكلمة. كانت تستشعر بصورة مشوّشة خطرًا جديدًا. صارت الآن مطاردةً من الجهتين.

في تلك اللّيلة، رأت في المنام حلمًا مضنيًا. كانت موسيقى مجهولة تدندن، وثمّة قاعة عالية ومضاءة. دخلت. حشدٌ من النّاس والألوان يختلط في حركةٍ واحدةٍ. وشاب يخيّل إليها أنّها تعرفه دون أن تتوصّل إلى التثبت منه، يتقدّم نحوها، يمسكها من ذراعها، فترقص معه. نعيمٌ لذيذٌ يغمرها، وموجة موسيقى عارمة ترفعها، إلى درجة أنها ما عادت تحسّ بالأرضيّة. يعبران راقصَين عدّة قاعاتٍ حيث ثريّات مذهّبةٌ تتلألأ من أعلى بشُعَلٍ صغيرةٍ كالنّجوم، والمرايا التي تغطّي الجدران تردّ إليها ابتسامتها، لتحملها من بعد وهي تعكسها إلى ما لا نهاية. تزداد الرّقصة جموحًا والموسيقى احتدامًا. تحسّ بأن الشاب يضيّق حولها العناق، ويضغط يده بقوّةٍ على ذراعها العارية ضغطًا تأوّهت منه ألمًا ونشوةً، وهي تغرق عينيها في عينيه، ظنّت أنها عرفته. خيّل إليها أنه ممثّل عشقته صغيرةً. عن بُعْد، وهي تحلّق من فرط السّعادة همّت بنطق اسمه، غير أنّه كتم صرختها الضعيفة

بقبلةٍ حارّةٍ. وهكذا، فمًا لفمٍ، لم يَعُد جسداهما اللاّهبان سوى جسدٍ واحدٍ، وهما يدوران حول نفسيهما من قاعة إلى أخرى، وكأنهما محمولان بريحٍ لذيذة. هربت الجدران. لم تعُد تحسّ السّقف المتواري في الفضاء، ولا الزّمن الخفيف خفّةً لا توصف. كلّ أعضائها تتموّج. وإذا بشخص يلمسها من كتفها. توقّفت، وتوقّفت معها الموسيقى. انطفأت الأضواء، تقاربت الجدران، سوداء، واختفى مُراقصها. «أعيديه إليّ أيتها السّارقة!» صاحت المرأة الفظيعة -فقد كانت هي- حتى أن الجدران اهتزّت لصراخها وأطبقت أصابعها الباردة على معصم إيرين. قاومت وسمعت نفسها تطلق صيحةً حادّةً، صرخة رعب جنونيّة. تصارعتا ولكنّ الأخرى كانت أقوى، فانتزعت من إيرين قلادة جواهرها ونصف فستانها، وعرّت بذلك ذراعيها ونهديها اللذين صارا يتدلّيان مثل مزق قماش. وها أنّ أناسا يظهرون من جديد، ويَهبّون من كلّ القاعات في جلبة متصاعدةٍ، ويركّزون أنظارهم فيهما بكيفيّة ساخرةٍ، إحداهما نصف عاريةٍ، والثانية تزمجر: «سرقته منّي، هذه الزانية، هذه العاهرة!» لم تدر إيرين أين تختبئ، أين تداري نفسها عن تلك الأنظار، لأنّ الناس يزدادون قربًا؛ وجوهٌ عابسةٌ، عدوانية، فضوليّة تستولي على عريها. عندئذٍ، وفيما كانت عيناها الشاردتان تبحثان في يأسٍ عن عونٍ، أبصرَت فجأةً زوجَها واقفًا، ثابتًا في طوق الباب المعتم، وهو يخفي يده اليمنى خلف ظهره. أطلقت صيحةً وجرت هاربةً بعيدًا عنه. جرت عبر مختلف القاعات، ومجموعة متعطّشة تتدفّق في أثَرها؛ أحسّت بفستانها ينسحب شيئًا فشيئًا، فلا تكاد تمسكه إلا لمامًا. وفجأةً انفتح أمامها باب. اندفعت

بقوّة نحو المدرج كي تهرب، ولكن في أسفله، كانت المرأة الدنيئة ذات تنورة الصّوف لا تزال هناك في انتظارها، بيديها المبرثنتين. قفزت جانبًا واستأنفت الجري كمجنونةٍ، في طريق مستقيمٍ، غير أنّ المرأة انطلقت في أثرها. كانتا تعدوان في اللّيل، عبر الشوارعِ الطويلة السّاكنة، وحاملات المصابيح تنحني عليهما. كانت إيرين تسمع خلفها باستمرار طقطقة جرموقي[2] المرأة، ولكن كلّما بلغت منعطف أحد الشوارع، برزت الأخرى من جديد، وكذلك خلف كلّ بيت، يمنة أو يسرة، كانت المرأة تترصدها. كانت تصل الأولى دائما، تتعدّد بشكلٍ مرعب، فيستحيل تجاوزها، إذ تبرز في كلّ مرّة، وتحاول أن تقبض على إيرين وقد بدأت تحسّ بانخذال رجليها. إلا أنّها في النهاية ألْفت نفسها أمام عمارتها. أسرعت نحو الباب تفتحه فإذا زوجها واقف وسكّين بيده وهو ينظر إليها نظرة نفّاذة. «أين كنت؟» سأل بصوتٍ بهيم. «لم أكن في أي مكان» سمعت نفسها تجيب، وضحكة حادّة تندّ من جانبها. «رأيت كلّ شيء، رأيت كلّ شيء!» تصرخ المرأة مقهقهةً، وقد بدت فجأةً قربها تضحك كالمعتوهة. لوّح زوجها بالسّكين. «النجدة!» صاحت إيرين، «النجدة!»...

فتحت عينيها فالتقى نظرها الواجف بنظر زوجها. ولكن... ما الأمر؟ كانت في غرفتها، والثريا ترسل ضوءا شاحبا، كانت في بيتها، في فراشها، تحلم. ولكن لماذا كان زوجها جالسًا على حافّة السّرير ينظر إليها كأنها مريضة؟ من أضاء الغرفة؟ لماذا يبقى هنا مكفهرّ الوجه دون حراكٍ؟ هزّت جسدها رجفة رعب. مدّت نظرها دون

(2) الجرموق وقاء يلبس فوق الحذاء.

أن تشعر إلى يد زوجها: كلاّ، لم يكن بها سكّين. تبدّد خمول النّوم ببطء، وكذلك الصّور التي عبَرت خيالها في شكل ومضاتٍ. لا شكّ أنّها حلمت، صاحت في حلمها وأيقظته. ولكن لماذا كان ينظر إليها مقطّب الوجه، بنظرة نفّاذةٍ، لا رحمة فيها؟

جهدت كي تبتسم. «ولكن... ماذا يحدث؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟ يبدو أني حلمت حلمًا سيّئًا.»

«نعم، صحتِ بقوّة. سمعت صياحك من الغرفة المجاورة.»

ماذا صرختْ، ماذا فضحت، فكّرت في قرارة نفسها مرتعدةً، ما الذي بات يعرفه؟ كانت لا تجرؤ كثيرًا على رفع رأسها كي تنظر إليه. ولكنه كان لا يزال يتطلّع إليها بوجهٍ عابسٍ، وهدوءٍ مميّز.

«ما بك يا إيرين؟ أنت تتعرضين لشيءٍ ما. لقد تغيرت تمامًا منذ بضعة أيام، كأنك محمومة. أنت متشنجة، مضطربة، وتطلبين النجدة في نومك...»

حاولَت مرّة أخرى أن تبتسم. «لا»، ألحّ. «لا ينبغي أن تخفي عني شيئًا. ألك مشاكل، هل ثمّة شيء يضنيك؟ الجميع في البيت لاحظوا إلى أي حدٍّ تغيرت. ينبغي أن تثقي به، يا إيرين.»

دنا منها بلطف، أحسّت تحت ذراعها العارية أصابعه تداعبها، وفي عينيه لمعة غريبة. غمرتها رغبة الارتماء على هذا الجسد المتين، والتشبث به، والاعتراف بكلّ شيءٍ، ودّت ألاّ تتركه يذهب دون أن يغفر لها، الآن، في هذه اللحظة التي رآها تتعذّب.

ولكن الثريّا كانت ترسل نورًا شاحبًا أنار وجهها فاعتراها خجلٌ. كانت تخاف من الكلمات.

«لا تقلق يا فريتز»، قالت وهي تحاول الابتسام، فيما كان جسدها يرتجف حتّى أخمص قدميها العاريتين. «أنا متوتّرة فقط. ستُفرج عمّا قريب.»

الذّراع التي كانت تطوّقها انسحبت بغتةً. ارتجفت إذ رأته، ممتقعًا تحت ذلك النّور البارد، وقد علت جبينه ظلال مثقلة بخواطر مظلمة. ببطء نهض.

«لا أدري، ولكن خيّل إليّ في الأيام الأخيرة أن لك أمرًا تريدين قوله لي، أمرًا لا يخصّنا إلاّ نحن. ونحن الآن وحيدان يا إيرين.»

ظلّت هناك مستلقيةً، لا تتحرّك، وكأنّها منجذبةٌ مغناطيسيًّا إلى تلك النظرة المقطّبة المغشّاة. فكّرت أن كلّ شيءٍ يمكن أن يسوّى الآن؛ حسبها أن تقول كلمةً، كلمةٌ فقط: عفوًا، ولن يطلب منها لماذا. ولكن لماذا يحرق النّورُ بقوّةٍ وإلحاحٍ وجرأةٍ؟ كان بوسعها أن تتكلّم في الظلام. هي تشعر بذلك. غير أن ذلك النّور كان يحطّم قواها.

«ليس لديك إذن شيء تقولينه لي، لا شيء؟»

أي إغواء رهيب، وأي لطف في صوته! لم تسمعه قطّ يتكلّم هكذا. ولكن ذلك النّور، تلك الثريّا، ذلك النّور الأصفر، الغامر!

أجهدت نفسها: «ماذا تتخيّل؟» قالت ضاحكةً، وهي فزعة من سماع نبرة صوتها الكاذبة. «لأني لا أنام جيّدًا، فلي قطعًا أسرار. ولم لا مغامرة!»

كانت ترتجف بداخلها، لشدّة ما في كلماتها من كذب ومداراة؛ كانت تثير في أعماقها الاشمئزاز، ولم تستطع أن تمنع نفسها من تحويل نظرها.

«إذن نامي جيّدًا.» قال ذلك بسرعةٍ، وبنبرة قاطعة. بصوت مغاير تمامًا، مثل تهديدٍ أو سخرية شرّيرة مخيفةٍ.

ثم أطفأ النّور. رأت ظلّه الأبيض يتوارى باتّجاه الباب، دون حِسّ، ممتقعًا، شبحًا ليليًّا، وعندما انغلق الباب خيّل إليها أن تابوتًا ينغلق. بدا لها العالم كلّه ميّتًا وخاويًا. في جسدها المتصلّب، قلبها فقط كان يضرب صدرها حدّ الانفجار، وكلّ خفق يصيبها بألمٍ. ألم.

في الغد، وبينما هم حول المائدة لتناول الغداء -وكان الطفلان قد تشاجرا، ولم يهدآ إلاّ بصعوبة-، جاءت الخادم برسالةٍ. كانت موجّهة للسيّدة وتنتظر الجواب. استغربت إيرين إذ رأت خطًّا مجهولاً، فتحت الظرف على عجلٍ، وامتقع لونها منذ السّطر الأوّل. قامت قوْمةً عنيفةً، وازدادت رعباً حينما أدركت، وهي ترى تعجُّب الجميع، أن ردّة فعلها المندفعة وغير المحسوبة قد فضحتها.

كانت الرّسالة قصيرةً. ثلاثة أسطر: «سلّمي من فضلك فورًا مائة كرونة لحامل الرّسالة.» لا توقيع ولا تاريخ، كتابة مقنّعة دون شكّ، لا شيء غير ذلك الأمر القهريّ حدّ الفظاعة. هرعت إيرين إلى غرفتها لتأتي بالمال، ولكنّها كانت قد أضاعت مفتاح الصّندوق. فتحت الأدراج بتوتّرٍ محموم، وفتّشت حتّى عثرَت عليه. وهي ترتعد، طوَت الورقة الماليّة ودسّتها في ظرْفٍ سلّمته بنفسها إلى الوسيط الذي

كان يترقّب عند الباب. قامت بذلك كلّه دون تفكير كأنّها منوَّمة، وحتّى دون أن تتخيّل أنّها يمكن أن تماطل. وبعد أن غابت قرابة دقيقتين، عادت إلى قاعة الأكل.

كان كلّ شيءٍ صامتًا. عادت إلى الجلوس خجولاً، ومحرجةً، وهمّت بعجالة أن تبحث عن تعلّة وإذا بها -ارتعدت يدها بشدّة حتّى أنها وضعت الكوب الذي رفعته- ترى، وقد جمّدها الرعب وصعقها التأثر، أنها تركت الرسالة مفتوحة جنب طبقها. [بحركة بسيطة، كان بإمكان زوجها الاستيلاء عليها، ولعلّ نظرةً واحدةً كانت كافيةً كي يقرأ تلك الكتابة المعوجّة. عجزت عن الكلام.] بحركةٍ سريعةٍ، كمشَت الورقة، ولكن حين أزالتها، رفعت عينيها فالتقتا بنظرة زوجها الصّارمة، نظرةٌ نافذةٌ، قاسيةٌ ومؤلمة لم تعهدها فيه قطّ. منذ مدّة قصيرةٍ، بضعة أيّام، كان يُشعرها من خلال نظره بفورات شكٍّ مباغتةٍ تهزّها من الأعماق ولا تدري كيف تصدّها عن نفسها. بتلك النظرة كان قد استولى عليها سابقًا وهي ترقص، وتلك النظرة هي التي كانت تلمع البارحة فوقها في نومها مثل سكين.

[هل كانت مسألة مؤكّدة أم رغبةً في التّعرف هي التي جعلت نظره بتلك الحدّة وذلك البرود، معدنيًّا شديدَ الإيلام؟] وفيما هي تبحث في يأسٍ عمّا تقول، عادت إلى ذهنها ذكرى نسيتها من مدّة: كان زوجها قد حدّثها مرّة عن قضيّةٍ جمعته هو، بوصفه محاميًا، بقاضي تحقيق كان من حيَله أثناء التّحقيق تفحُّص الملّف متظاهرًا بضعف النّظر، فإذا همّ من بعدُ بإلقاء السؤال الحاسم فعلاً، رفع عينيه في

ومضة برق ليولجهما كالخنجر في عيني المتّهم، المرتعب فجأةً، إذ يربكه الانتباه المركَّز لتلك النظرة الصّاعقة، ويفقده تماسكه وكذلك القوّة على مواصلة الكذب الذي التزم بالمضيّ فيه. فهل سيجرّب زوجها الآن حيلةً بتلك الخطورة، وهل ستكون هي الضحيّة؟ ارتجفت لا سيّما أنّها تعرف ولع زوجها الشديد بعِلْم النّفس، ولعٌ يربطه بمهنته فوق ما تقتضي صفته كرجل قانون. اكتشاف خيطٍ في قضيّة إجرامية، واتّباعه وانتزاع الاعترافات، يمكن أن يشغله كما تشغل غيرَه ألعاب القمار والمغازلات، وفي مثل أيّام مطاردة المؤشّر السّيكولوجي هذه، يبدو مسكونًا بنارٍ ملتهمةٍ. كان إذا ملكَه توتّر محمومٌ، يستحضر غالبًا في عزّ اللّيل أحكامًا منسيّةً، ويتبدّى في برودٍ لا يحتمل، يأكل بمقدار ويشرب بمقدار، ولكنّه لا يتوقّف عن التّدخين، ويدّخر فيما يبدو كلامه لجلسة المرافعة. ذات يومٍ، حضرَت مرافعَة زوجها، وكانت المرّة الوحيدة، لشدّة ذعرها من تحمّس زوجها الشّرس، واحتدام خطابه الشّرير تقريبًا، وقسوة وجهه المتجهّم التي يخيّل إليها أنّها تجدها الآن في هذا النّظر الثابت، تحت حاجبين مهدّدين.

كلّ تلك الذكريات الضائعة عادت في هذه اللحظة، لتسدّ الطريق على الكلمات المزدحمة على شفتيها. كان يلزَم الصّمت، فيزداد اضطرابها كلّما شعرَت بمدى خطورة ذلك الصّمت [وبأنّها كانت بصدد تفويت آخر فرصةٍ تقدّم فيها تفسيرًا مقنعًا. لم تعد تجرؤ على رفع عينيها، ولكنها إذ تنكس رأسها بتلك الكيفيّة، صارت أكثر خوفًا لرؤية يديه تتحرّكان تحت المائدة مثل حيواناتٍ صغيرة هائجةٍ،

والحال أنه هادئ الطبع في العادة، رصين.] لحسن الحظّ أنّ الغداء ما لبث أن انتهى، وأنّ الطفلين فزّا قائمين ليتّجها بسرعةٍ إلى الغرفة المجاورة، وهُما يطلقان صيحات فرحٍ باندفاعٍ حاوَلت المربّية عبثًا تلطيفه. نهض زوجها أيضًا وسار بخطى ثقيلةٍ إلى غرفةٍ أخرى، دون أن يلتفت.

عندما ألْفت نفسها وحيدةً، أخرجت الرّسالة المشؤومة، وقرأت من جديد الكلمات القليلة: «سلّمي من فضلك فورًا مائة كرونة لحامل الرّسالة.» ثمّ مزّقتها حانقةً وهمّت بأن تلقي كرة الورق في سلّة المهملات ثم تراجعت، توقفت في حركة حاسمةٍ، انحنت على الموقد ورمت بها في النّار المتقضقضة. هدّأتها الشّراهة المفترسة التي أزالت بها الشعلة البيضاء ذلك التهديد.

في تلك اللّحظة سمعت عند الباب خطى زوجها وهو عائد. قوّمت جذعها بسرعةٍ وقد احمّر وجهها من حرارة النار وخشيت أن يفاجئها. فضحها باب الموقد الذي لا يزال مفتوحًا، فحاولَت برعونةٍ إخفاءه بالوقوف أمامه. دنا من المائدة، أشعل عود كبريت لسيجاره، ولمّا صارت الشعلة قريبةً من وجهه، خيّل إليها أنها رأت منخريه يرفّان قليلاً ما يعني عنده دائمًا علامة غضب. عندئذٍ نظر إليها بهدوء وقال: «أودّ فقط أن أقول لك إنك لست مجبرةً على إطْلاعي على رسائلك. إن شئت أن يكون لك أسرار تجاهي، فأنت حرّة.» ظلّت صامتةً دون أن تجرؤ على النّظر إليه. انتظر لحظة، ثم نفخ بعنف دخان سيجاره، كأنه يلفظه من عمق رئتيه، وغادر الغرفة بخطى ثقيلة.

الآن، لم تعد تريد التفكير في أيّ شيءٍ، ولكن فقط أن تعيش، أن تتشاغل، أن تنكب على مشاغل بسيطة وتافهة. لم تعد تطيق بيتها؛ كانت تحسّ أن عليها الخروج إلى الشارع، وسط الناس، لِكَيْلاَ تجنّ من شدّة الرعب. كانت تأمل أنها، بمائة كرونة، اشترت من المبتزّة بضعة أيام حريّة على الأقل، واعتزمت أن تغامر بالخروج من جديد، لا سيّما أن لها عدّة عملياتٍ تبضّع وينبغي لها أن تخفي عن مقرّبيها ما فاجأهم في سلوكها. صار لها الآن طريقة مخصوصةٌ في الفرار. ما إن تجتاز باب العمارة، حتى تندفع إلى سيل الشارع، كما نقفز من شرفة غطسٍ مغمضي العيون. عندما تحسّ بالحجر الصّلب تحت رجليها، وموج الناس الدافئ حولها، تندفع مباشرة إلى الأمام، بخطوٍ سريع موتور على قدر ما تحتمله سيّدة دون أن تلفت الانتباه، وعيناها على الأرض، خشية أن تصادف مرّة أخرى تلك النظرة الرّهيبة. هي لا تريد أن تعرف إن كان ثمّة من يرقبها. ولكنها كانت تشعر أنها لا تفكّر في شيءٍ آخر، وتهتزّ كلّما لامسها أحدهم صدفةً. أدنى حسّ، وأدنى خطوة خلفها، كلّ طيفٍ يمرّ، يصيب أعصابها بتوتر قاس. لم تكن تستطيع التنفس إلا داخل سيّارة أو لدى أصدقاء.

حيّاها أحدهم. رفعت عينيها فإذا هو صديقٌ قديمٌ للعائلة، ملتحٍ أشهب، ودود ومهذار، كانت تفضّل دائمًا تجنّبه لأنّ من عادته إزعاج الناس طيلة ساعاتٍ بمشاكله الصحيّة، الوهميّة دون ريب. ولكنّها تتأسّف اليوم لاكتفائها بالردّ على تحيته دون أن تسعى إلى رفقته، لأنّ رفقة شخصٍ تعرفُه كانت ستحميها، وتمنع المبتزّة من أن تقربها فجأةً. تردّدت وأرادت الرّجوع ولكنّها شعرت أن ثمّة

وراءها من يوسع الخطى كي يدركها، ودون أن تفكّر، ودون أن تشعر، استأنفت سيرها. ولكن حدسها الذي شحذه الخوف بقسوة جعلها تحسّ أن في ظهرها من يقترب وهو يزيد من سرعته، فجرت بأسرع ما استطاعت وهي تعلم أنها لا يمكن في النهاية أن تهرب من تلك الملاحقة. ارتعدت كتفاها حين فكّرت، والخطى تزداد قربًا، أنّ يدًا ستنحطّ عليها بعد لحظة، وكلّما أرادت حثّ خطاها ثقلت رجلاها. أحسّت الآن بأن الملاحق قريب جدًّا. «إيرين!» ناداها من خلفٍ، بلطف وإلحاحٍ، صوتٌ لم تعرفه في الحال، ولكنّه لم يكن الصوت الذي تخشاه، صوت رسولة التّعاسة الدّنيئة. التفتت، وفي نفس ارتياح؛ كان عشيقها، وكاد يقع لأنّها توقّفت بغتةً. كان ممتقعًا، متشنّجًا، على وجهه كل علامات الانفعال، ثم الخجل، بعد أن راحت تنظر إليه بعيون ذاهلة. مدّ يده في تردّد كي يصافحها، غير أنه أنزلها حينما رأى أنها لا تمدّ يدها إليه. ظلّت ثانيةً أو اثنتين تتفرّس وجهه، إذ لم تتوقّع لقاءه. هو الذي نسيته طيلة أيّام الجزع هذه. ولكن الآن، أمام هذا الوجه الممتقع المتسائل، وهي ترى عن قرب ذلك التعبير الخاوي الذي يحمّله الفزع للنظر، أحسّت فجأةً أن دمها يغلي من شدّة الغضب. كانت شفتاه ترتجفان، وتهمّان بالكلام، وقد بدا التأثر على ملامحه، فلم يقل غير غمغمة اسمها: «إيرين، ما بك؟» ولما رأى نفاد صبرها، أردف بنبرةٍ مستسلمة: «ولكن ماذا فعلت لك؟»

نظرت إليه، وهي لا تستطيع كبح غضبها. «ماذا فعلت؟» تعجّبت في قهقهة. «لا شيء! لا شيء إطلاقًا! لا شيء سوى الخير! سوى أشياء جميلة...»

كان مشدوه النظرة، فاغر الفم، ما أضفى عليه هيئة غبيّ أو مثير للسخريّة. «ولكن يا إيرين... إيرين!»

«بلا فضائح!» أمَرته بجفاء. «ولا تمثّل عليّ! لا شكّ أنها لا تزال ترقبني عن كثب، صديقتك اللّطيفة، على أهبة الاعتداء عليّ مرّة أخرى...»

«من... ولكن من؟»

داخلتها رغبة قوية في أن توجّه إليه لكمة على وجهه، ذلك الوجه المجمّد في بلاهة تضيّع ملامحه. كانت تحسّ بيدها قد تصلّبت على مطريتها. لم يسبق أن احتقرت شخصًا وكرهته بهذا الحجم.

«ولكن يا إيرين... إيرين»، غمغم وهو يزداد اضطرابا. «ماذا فعلت لك؟ فجأةً ما عدت تأتين... أنا أنتظرك ليل نهار... اليوم بقيت كامل النّهار أمام بيتك أنتظر أن أتحدّث إليك ولو لدقيقة.»

«تنتظر... يا للصدفة... أنت أيضًا.» كان الغضب قد ذهب بعقلها، هي تشعر بذلك. آه، كم سيريحني لكمُهُ على وجهه! غير أنّها تماسكت، نظرت إليه مرة أخرى باشمئزاز عنيف، وقد بدا أنّه يتساءل ما إذا كانت ستشتمه أو تبصق في وجهه كلّ حنقها المتراكم. فجأةً، استدارت وغاصت في الجمع السّائر دون أن تلتفت. ظلّ مسمّرًا هناك، ويده لا تزال تتوسّل، مضطربًا مرتعدًا، ثمّ غمرته حركة الشارع الذي حمله مثلما يحمل التيّار ورقة تقع، إذ تترنّح، تقاوم، تدور حول نفسها، ثم تنتهي بأن

يجرفها التيار.

[بدت لها فكرة أنّ ذلك الرجل كان في يوم مّا عشيقها، غير واقعيّة بالمرّة وعبثيّة. لم تعد تذكر شيئًا، لا لون عينيه، ولا شكل وجهه. جسدها نسي تمامًا مداعباته، والكلمات التي نطقها. لم يزل يرنّ في سمعها سوى «ولكن، إيرين!»، شكوى شخصٍ ضعيفٍ خسيسٍ يغمغم بيأسه. لم تفكّر فيه إطلاقًا طيلة الأيّام الأخيرة، ولا في أحلامها، رغم أنه سبب مصيبتها. لم يكن شيئًا في حياتها، ليس غواية، بل يكاد يكون مجرّد ذكرى. كانت لا تستطيع أن تفهم كيف أمكن له أن يضع شفتيه على فمها، وتحسّ بأنها قادرة أن تقسم أنه لم يملكها قطّ. ما الذي دفعها بين أحضانه؟ أيّ جنونٍ مرعب ألقى بها في مغامرة لمْ يَعُد قلبها يفهمها، وإن أدركتها حواسّها قليلاً؟ لمْ تَعُد تعلم عن ذلك شيئًا. كلّ ما حدث بدا لها غريبًا عنها، بل كانت ترى نفسها غريبة.

ولكن ألمْ يتغيّر الباقي كلّه أيضًا خلال تلك الأيّام الستّة، خلال أسبوع الرعب ذاك؟ كحامض كبريتي، كان الخوف الذي ينهشها قد غيّر حياتها في عدة عناصر. صار للأشياء فجأةً وزن آخر؛ لمْ تَعُد القيَم هي نفسها، والعلاقات تشوّشت. خيّل إليها أنّها لم تتقدّم في حياتها حتى الآن إلاّ كخبط عشواء، في حال شبه غسقيّة، مغمضة العينين تقريبًا. وها أن كلّ شيء يتّضح من الداخل ويصبح مضيئًا، في صفاء جميل بقدر رهيب. قريبًا منها، طوع اليد، توجد أشياء لم تهتمّ بها البتّة، وأدركت فجأةً أنّها تشكل حياتها الحقّ؛ في المقابل، ما

بدا لها هامّا تحوّل إلى دخان. حتى تلك اللحظة، كان لها حياة اجتماعية مكثّفة، وسط الصخب وثرثرة أناس ميسورين، ولمْ تعش في الواقع إلاّ لذاك؛ ولكنّها الآن بعد أن حبست نفسها أسبوعًا كاملاً في بيتها كما في زنزانة، لم تشعر أنها فقدت شيئًا هامًّا، بالعكس كانت تشعر بالاشمئزاز من كل الذين لا يفعلون شيئًا، أولئك الذين يتحركون في الفراغ. وبرغم أنفها، أتاح لها هذا الإحساس القوي الأول الذي اعتراها، أن تكتشف كم كان ذوقها تافها، وكيف ارتكبت خطأ عظيمًا حين لم تعبّر عن حبّها بأفعال. وإذ تأمّلت زواجها، رأت فيه هاوية. طوال ثماني سنوات من الزواج، في وهم سعادة مفرطة في الاعتدال، لم تقترب قطّ من زوجها، بل ظلّت غريبة عمّن هو حقًّا، وكذلك عن طفليها. بينها وبينهم، ثمّة أناس مأجورون. مربّيات وخدم يحرّرنها من كل تلك المشاغل الصغرى التي بدت لها -الآن بعد أن رأت عن قرب كيف يعيش ولداها- أكثر جاذبية من نظرات الرجال الحامية وأكثر سكرًا من عناق. تغيّرت من أثر ذلك حياتُها واتخذت لها معنى جديدًا. هناك علاقات تقوم بين كلّ الأشياء، صار لكلّ شيء في نظرها وجه رصين وعميق. منذ أن عرفت الخطر واعتراها بفضله إحساس حقيقي، بدأت تشعر بالتلاؤم مع الجميع، حتّى أكثرهم غرابة. صارت تجد نفسها في كلّ شيء، والعالم، الذي كان فيما مضى شفّافًا كالزّجاج، أصبح فجأةً مرآةً في المكان المظلم الذي كانت تصنع فيه ظلاً. وحيثما نقّلت نظرها، وانتباهها، صار واقعيًا.

كانت جالسةً قرب طفليها. تقرأ لهما حكاية عن أميرة يحقّ لها أن تزور كلّ غرف القصر ما عدا واحدة، تلك التي أغلِقت بمفتاح

فضّي؛ ولكنّها ستفتحه، وفي ذلك مصيبتها. أليس ذلك قدرها؟ ألم تكن هي أيضًا منبهرةً فقط بالمحظور ومنساقةً إلى المأساة؟ تلك الحكاية الصّغيرة التي وجدتها ساذجة وسخيفة قبل أسبوع، بدت لها الآن ذات حكمة عميقة. قرأت في الجريدة حكاية ضابطٍ وقع ضحيّة مساومة فأصبح خائنًا. اعتراها ارتجاف وفهمت؛ ألا تفعل المستحيل هي أيضًا كي تحصل على المال، وتشتري بضعة أيّام من الهدوء، سعادة ظاهرية؟ أيّ سطر يأتي على ذكر انتحارٍ أو جريمةٍ أو يأسٍ صار بالنسبة إليها أمرًا معيشًا. كلّ شيءٍ يتحدّث عنها، الكائن المتعب من الحياة، اليائس، الخادم المخدوعة أو الطفل المهمَل، كل ذلك كان كمصيرها. أحسّت فجأةً ثراء الحياة كلّه، أدركت أن مجرى حياتها لن تكون فيه دقيقة ليس لها ثمن. الآن فقط، وكل شيء يميل إلى الانحدار، تراءت لها بداية؛ تلك الألفة العجيبة مع العالم الشاسع. هل لتلك المرأة المتفسّخة وحدها سلطة تدميرها بيديها العنيفتين؟ هل بسبب ذلك الخطأ الوحيد سيؤول مصير الأشياء العظيمة والجميلة التي تحسّ لأوّل مرّة أنّها تقدر عليها إلى الاضمحلال؟

ولماذا؟ -كانت تقاوم بلا تبصّر قدرًا محتومًا تعتبره، دون أن تقوله، مبرّرًا-، لماذا ينبغي أن تكون هي التي يسلَّط عليها عقاب شديد بسبب خطأ بسيط؟ هي تعرف نساءً متغنّجات، ومتهتّكات، وداعرات، يبلغن مبلغ إعالة عشّاقهن ماديًّا، والضحك بين أحضانهم على أزواجهنّ، نساء يعشن في الكذب كأنّه وسطهنّ الطبيعي، ويجعلهنّ التخفّي أحسن جمالاً، والاضطهاد أشدّ بأسًا، والخطر أكثر خدعة، فيما تخور قواها عند أوّل فزع، وأوّل خطأ.

ولكن هل هي فعلاً مذنبة؟ في قرارة نفسها، كانت تحسّ أن ذلك الرجل، العشيق، غريب عنها، وأنّها لم تضحّ من أجله بشيء من حياتها الحقيقية. لمْ تتسلّم منه شيئًا، ولمْ تعطه شيئًا. كلّ تلك الأشياء التي ولّت ونُسيت ليست جريمتها، بل جريمة امرأة أخرى لا تفهمها ولا تتوصّل حتّى إلى تذكّرها. هل من حقّنا أن نعاقب على جريمة سمح الزمن بالتكفير عنها؟

اعتراها فجأةً خوف. أحسّت أنّ تلك الخاطرة ليست لها. فمن قالها إذن؟ شخص من محيطها، مؤخّرًا، قبل بضعة أيام. فكّرت، ولم يكن فزعها أقلّ ممّا كان حين تذكّرت أن زوجها هو الذي ولّد لديها تلك الفكرة. كان قد عاد من محاكمة، ممتقعًا متوتّرًا، وقال فجأةً، وهو القليل الكلام في العادة، موجّهًا كلامه إليها وإلى بعض أصدقاء كانوا هناك: «اليوم، حكم على رجل بريء.» وإذ حاصرته الأسئلة من الجميع، روى، وهو لا يزال متأثّرًا، أنّهم عاقبوا لصًّا عن عملية تحيل ارتكبها قبل ثلاث سنوات. وكانت في رأيه مظلمة، لأنّ الجريمة بعد ثلاث سنوات لم تعد جريمته. هم عاقبوا رجلاً آخر، زد على ذلك أنّه عوقب مرتين لأنه قضى ثلاث سنوات في زنزانة خوفه، وقلقه الدّائم من إدانته.

هي تذكر أنّها عارضته باستياء كبير. هي التي لا تعرف من الحياة إلاّ القليل، كانت ترى دائمًا في المنحرف كائنا يهدّد الرّخاء البرجوازي وينبغي التخلّص منه بأيّ ثمن. الآن فقط تحسّ إلى أي درجة كانت حججُها مثيرةً للشّفقة، بينما كانت براهين زوجها عادلة وكريمة.

ولكن هل يكون قادرًا أيضًا أن يفهم أنّها في حالتها لم تهوَ رجلاً بل هوت المغامرة؟ وأنه هو أيضًا مذنب لأنّه كان بالغ الطيبة، ووفّر لها حياة رفاه مسكِّن؟ هل يستطيع أيضًا أن يكون عادلاً لو قُدّر له أن يصدر حكمًا في قضيّتها؟

ولكن كان مكتوبًا أنها لا ينبغي أن تستسلم لمثل هذه الآمال النّاعمة. فلمّا كان الغد وصلت رسالة أخرى أيقظت مثل جَلدة سوط خوفَها الناعس. هذه المرّة طُلب منها مائتا كرونة سلّمتهما دون مقاومة. كانت هلعة من تصاعد المساومة العنيف، تحسّ أنّها ليست في مستوى المشكلة، حتى من الناحية الماديّة، لأنّها وإن كانت من عائلة ثريّة، لا تستطيع أن تسحب مبالغ هامّة دون أن تثير الانتباه. ثم ما نفع ذلك؟ كانت تعلم أنّها ستطالَب من الغد بأربعمائة كرونة، وعمّا قريب بألف؛ وكلّما أعطت طولبَت، وحالما تجفّ مواردها، ستأتي رسالة مجهولة المصدر، وتحلّ الكارثة. ما تشتريه لم يكن سوى وقتٍ، استراحةٍ للتنفس، يوميْ راحة أو ثلاثة، أسبوع ربّما، ولكنه وقت تتراجع قيمته بشكل فظيع، وقت مليء بالعذاب والقلق. [منذ أسبوعين، صارت لا تنام جيّدًا، بسبب أحلام أكثر إيلامًا من الأرق؛ كانت تختنق، تجد صعوبة في حركاتها، ولا تستطيع أن ترتاح ولا أن تشغل نفسها.] لم تعد قادرةً على القراءة أو القيام بأيّ شيء، ومارد الخوف يطاردها. كانت تشعر بالمرض. تحتاج أحيانا إلى الجلوس فجأةً، لما ينتاب قلبها من خفقٍ عنيف؛ وثقل القلق ينشر في كلّ أعضائها العصارة اللزجة لتعب يكاد يكون مؤلمًا، يرفض أن يستسلم للنوم. [بات كل وجودها ملغّمًا بهذا الخوف المضني، وقد تسمّم به

جسدها، فتتمنى من أعماق نفسها أن تتبدّى هذه الحالة المرضية في شكل ألم ظاهر، مرض عيادي ملحوظ بحقّ ومرئيّ، ليثير شفقة الآخرين ورحمتهم. في ساعات العذاب السرّي تلك، تحسد المرضى. كم هو ممتعٌ دون شكّ أن يكون المرء في مصحّة، ممدّدًا على سرير أبيض، بين جدران بيضاء، محاطًا بالأزهار والعطف، سيأتي أناس، ويكونون طيّبين كلّهم معها، وعن بعد، خلف ضباب العذاب، ستلمع ساطعةً شمسُ الشفاء الطيبة. إن كنّا نتألّم، فلنا الحقّ على الأقلّ في الصراخ، أما هي فينبغي لها أن تمثّل دائمًا كوميديا تراجيدية، تتظاهر بالبشاشة والصحّة الجيّدة، فيما كل يوم وكل ساعة تقريبًا تضعها في مواجهة وضع جديد رهيب.] كان ينبغي لها أن تبتسم، والحال أن أعصابها متشنّجة، وأن تبدو فرحة دون أن يتفطّن أحد لجهدها الزّائد عن الحد في تصنّع الفرح، ولا الطاقة البطولية المبدّدة في ذلك العنف اليومي ضد نفسها، رغم كونه لا يجدي.

يبدو أنّ كائنا وحيدًا في كلّ محيطها، يحزر، حسبما لاحظت، ما تعانيه من ويلات، وذاك فقط لأنه يرقبها. كانت تشعر عن يقين يدفعها إلى مضاعفة الحذر، أنه لا يكف عن الانشغال بها، كما تنشغل هي به. كانا يلفّان حول بعضهما بعضًا ليل نهار، وكأنهما يرسمان دوائر، كل واحد يحاول أن يكشف سرّ الآخر، مع الحرص على أن يظلّ سرّه هو مخفيًا خلف ظهره. زوجها، هو أيضًا، تغيّر في المدّة الأخيرة. الصرامة المهدّدة التي أظهرها خلال تفتيشية الأيّام الأولى نابت عنها طيبةٌ فيها اهتمام كبير ذكّرها رغمًا عنها بفترة الخطوبة. كان يعاملها كمريضة، مع عناية تربكها [لأنها تخجل من استحقاقٍ قليلٍ من هذا

الحبّ، ولكنّها تخشاه من ناحية أخرى لأنّه قد يكون في الأمر حيلة غايتها أن ينتزع منها سرّها في لحظة غير متوقّعة، مستغلاً ضعفها. منذ تلك الليلة التي سمعها فيها تتكلم وهي نائمة، ومنذ اليوم الذي رأى فيه الرّسالة في يديها، تحوّل تحدّيها فيما يبدو إلى شفقة. كان يجهد في نيل ثقتها بلطف يطمئنها ويكسر تقريبًا صمودها. ولكن في الثانية الموالية تستسلم من جديد للشكوك. أليست سوى حيلة، إغراء قاضي التحقيق للمتهم، خدعة للحصول على ثقتها، وجرّها إلى الاعتراف، فإذا ما انطلت أسلمتها دون دفاع لإرادته. أو أنه شعر أنّ هذا الوضع المغالي من مراقبة وتلصّصٍ صار لا يطاق، وأنّ عطفه كان من السّعة ما يجعله يشفق سرًّا على آلامها التي تزداد كل يوم ظهورًا؟] كانت نهبًا أحيانًا لرجفة غريبة حين تراه يهمس لها بالكلمات المحرِّرة التي تغويها بجعل الاعتراف أسهل. كانت تتفهم نيته، فتنتشي اعترافًا بطيبته. ولكن في الوقت الذي يزداد فيه عطفه، يكبر خجلها تجاهه، وذاك ما كان يمنعها من الكلام، أكثر من ريبتها الأولى.

خلال تلك الأيام، حدّثها مرّة دون مواربة، وجهًا لوجه. كانت قد عادت، وسمعت من الردهة أصواتًا تفرقع؛ زوجها وهو يتكلّم بنبرةٍ قويّة قاطعة، والمربية تفيض بالتوبيخ في ضجيج يقطعه بكاء وشهيق. فزعت في البداية. كانت كلّما سمعت أصواتًا وجلبة في البيت ارتجفت، فقد كان الخوف ردّ فعلها على كلّ ما هو غير معتاد؛ الخوف الحارق من أن تكون الرّسالة قد وصلت، وانكشف السرّ. كلّما فتحت الباب، وجّهت نظرتها الأولى إلى الوجوه التي حولها كي تعرف هل حدث أمرٌ في غيابها، هل وقعت كارثة حينما كانت خارج

البيت. في ذلك اليوم، بعد أن تأكّدت من أنّ المسألة لم تتعدّ خصومة أطفال، خصّص لها مشهد تمثيلي قضائي صغير. قبلَها ببضعة أيام، كانت عمّة الطفلين قد أهدت أحدهما لعبة، حصان صغير بألوان فاقعة، فانتابت أخته الصّغرى، التي حصلت على هدية أقلّ قيمة، غيرةٌ مُرّة. حاولَت عبثًا المطالبة بحقوقها، وبحدّة دفعت الطفل إلى أن يرفض أن تمسّ لعبته، ما ولّد لديها في البداية غضبًا صاخبًا، تلاه صمتٌ مستسلمٌ، خامل، عنيد. ولكن في الغد لم يعثر الطفل للحصان الصغيرعلى أثر، وباءت أبحاثه عنه بالفشل، وصدفةً عُثر في الموقد على قطع من اللعبة المفقودة؛ الأجزاء الخشبية مكسّرة، والجلد مقلوع، والجوف مبقور. اتجهت الظنون بطبيعة الحال إلى الطفلة. جرى الولد إلى أبيه باكيا [ليتّهم الشرّيرة التي أرغمت على شرح موقفها]. وكان الاستنطاق قد بدأ منذ حين.

[اعترت إيرين غيرة. لماذا يتوجّه الطفلان في كلّ مرّة إلى أبيهما ليحكيا له مشاكلهما، ولا يتوجّهان إليها هي أبدًا؟ دائمًا، يخصّان زوجها بخصوماتهما وشكاواهما؛ وقد استحسنت حتى الآن تحرّرها من تلك المضايقات، ولكنّها صارت فجأةً تريد بكلّ قوّة أن يكون لها فيها نصيب، لأنها لمست فيها حُبًّا وثقةً.]

لم تلبث المحكمة الصغرى أن أصدرت حُكمها. أنكرَت الطفلة في البداية، ولكن إغضاءها عينيها خشيةً، وارتجاف صوتها فضحَاها. شهدت المربّية ضدّها: سمعت البنتَ تهدّد غاضبةً برمي الحصان الصّغير من النافذة. وهو ما حاولَت الطفلة عبثًا تكذيبه، مع نشيج

يائس خلق بعض الضجّة. كانت إيرين تنظر إلى زوجها. داخلها إحساسٌ بأنّه لا يترأس تلك المحكمة من أجل الطفلة، بل من أجلها هي، لأنّها ستجد نفسها أمامه ربّما من الغد، بنفس رجفة الصوت وشرخه. كان زوجها يحافظ على نظرةٍ صارمة حين كانت البنتُ تمعن في الكذب، ثم خفّض شيئًا فشيئًا من مقاومتها، دون أن يغضب من عنادها. ولما ناب الصمت العنيد التكذيبَ والنفيَ، كلّمها بلطف، وبيّن لها الضرورة الدّاخلية لهذا الفعل، وغفر لها قيامها بشيء مكروه عند أول حركة غضب غير محسوب، دون أن تتصوّر أنّها ستسبّب حزنًا كبيرًا لأخيها. شرح بدفءٍ وإلحاحٍ للطفلة التي كانت ثقتها في نفسها تتراجع تدريجيًّا، لماذا كانت فعلتها مفهومة ولكنّها مرفوضة، حتّى جعلَت تنشج ثم انفجرت باكيةً. ثم ما لبثت، وهي غارقة في دموعها، أن تمتمت بكلمة الاعتراف.

أسرعت إيرين إلى ابنتها الباكية تحضنها، ولكن الطفلة دفعتها في غضب. ثار الأب وأنكر هو أيضًا ذلك العطف المستعجل، لأنه، رغم كل شيء، لا يريد أن يترك تلك الفعلة بغير عقابٍ، وأصدر ضد الطفلة عقوبة، أيًا ما يكن اعتدالها، فهي ذات أثر أكيد: لا حقّ لها في الذهاب إلى حفلة يوم غد التي كانت تستعدّ لها في فرح منذ أسابيع. أصغت الطفلة إلى الحكم بعين دامعة. وهتف الطفل ظافرًا هتافًا عاليًا. فكان أن شملته العقوبة هو أيضًا نتيجة تلك السخرية الصّاخبة: نظرًا لتعبيره عن فرحه بخبث، يُسحب منه هو أيضًا ترخيص الذهاب إلى تلك الحفلة. أسف الطفلان معًا، ولم يكن لهما من عزاء سوى اشتراكهما في العقوبة، فانصرفا، وبقيت إيرين وحيدة مع زوجها.

أحسّت فجأةً أن لها هنا أخيرًا فرصة؛ بدَلَ التّلميحات، يمكنها، تحت ستار نقاش عن خطأ الطفلة واعترافها، أن تتحدّث عن حالتها. [اعتراها ارتياح لكونها يمكن، بطريقة مواربة، أن تعترف وتطلب الرحمة.] فلئن كان زوجها يقبل الآن بتفهّم دفاعها عن الطفلة، ففي ذلك علامة، وهي تعرف عندئذٍ أنها ستجرؤ ربما على الدّفاع عن قضيتها.

«أخبرني يا فريتز، -استهلّت كلامها-، هل تنوي حقًّا حجز الطفلين غدا؟ سيأسيان كثيرًا، لا سيّما البنت. فليس عظيمًا ما أتت على أيّة حال. لماذا تريد عقابها بشدّة؟ ألا تثير شفقتك بالمرّة، تلك الصغيرة؟»

نظر إليها. ثم جلس على مهل. [بدا جليًّا أنّه مستعدّ لفحص المسألة عن قرب، واستشعرت شيئًا مفرحًا ومزعجًا في الآن نفسه، بأن كل كلمة من كلماته قد تنطبق عليها. كان كيانها كلّه ينتظر نهاية تلك الاستراحة، غير أنه مدّدها، ربّما عن قصْدٍ، أو لأنّه كان يركّز تفكيره.]

«تسألينني ما إذا كانت لا تثير شفقتي؟ أجيبك: نعم، لم تعد كذلك اليوم. لقد استراحت منذ أن عوقبت، حتى وإن بدا لها ذلك مرًّا. كانت بالأمس شقيّة، حينما كانت مزق الحصان المسكين تقبع في الموقد، وكان البيت كلّه يجدّ في البحث عنه، وهي تخشى أن نعثر عليه في أيّ لحظة، وكأنّ ذلك ممكن. الخوف أشدّ من العقوبة، لأن العقوبة محدّدة دائمًا مهما كانت خطورتها.

ولكنها كانت مجبرة على الترقب الفظيع غير المحدّد الذي يستمرّ إلى ما لا نهاية، بشكل رهيب. ما إن عرفت عقوبتها، شملها ارتياح. ينبغي ألاّ تكون دموعها مخطئة؛ الآن فقط هي تنهال، ولكنّها قبل ذلك كانت تتراكم بداخلها. وهي أكثر إيلامًا في الداخل ممّا هي في الخارج. [ولو لم تكن طفلة، أو لو نقدر بطريقة مّا أن نسبر غورها، فسنكتشف في رأيي أنها مسرورة في الواقع، رغم العقوبة والدّموع، وأكثر فرحًا قطعًا من أمس، حينما كانت تتجول بغير اكتراث ولا شكّ من أحد.]»

رفعت إيرين عينيها. أحسّت أنّ كل كلمة كانت موجّهة إليها. ولكن يبدو أنه لا ينتبه لذلك. [وإذ تَأَوَّل حركتها خطأ ربما، واصل في نبرة أكثر تصميمًا:]

«المسألة كذلك حقًّا، يمكنك أن تثقي بي. أعرف هذا من المحكمة ومن التحقيقات. أن يخفي المرء، ويعرض نفسه للانكشاف، ويتعرّض لفظاعة الدفاع، مرغمًا، عن كذبة ضد ألف هجوم مقنّع، ذلك ما يعذّب المتّهمين أكثر من سواه. [من المرعب أن نرى في بعض الحالات أن القاضي كان قد أمسك بعد بكلّ شيء: الجريمة، الدليل، وربما الحكم نفسه، لا ينقصه سوى الاعتراف المعطّل بداخل المتّهم لا يريد الخروج، رغم كل المناورات.] فظيع أن ترى متّهمًا يتلوّى في شتّى الاتجاهات لاعتقاده أنّه ينبغي كيّ جسده المتمرّد لانتزاع «نَعَمِـ»ـه. أحيانا يكون الاعتراف في حلقه، يكاد يخنقه، قوّة لا تقاوم تريد إخراجه، ويكاد يتحوّل

إلى كلمات. عندئذٍ تهاجم المتهمين تلك القوةُ الشريرة، ويتحوّل ذلك الشعور الغامض إلى عنادٍ وخوف، فيزدردونه. ويعود الصّراع إلى نقطة البدء. ويتعذّب القضاة من ذلك أكثر من الضحايا. ورغم ذلك، يعتبر المتهمون دائمًا عدوًّا لهم ذلك الذي هو في الحقيقة سندهم الوحيد. أنا محاميهم والمدافع عنهم، يفترض أن أنصح موكّليّ بعدم الاعتراف، وأن أدعم وأساند كذبهم، ولكن غالبًا ما أشفق عليهم لأنهم يتعذبون من الإنكار أكثر مما يتعذبون من الاعتراف والعقاب. في الحقيقة، لا أستطيع أن أفهم أن بإمكاننا القيام بفعل ونحن واعون بالخطر، ثم لا نجد الشجاعة للاعتراف به. ذلك الخوف البائس من الكلام، هو في رأيي أكثر مدعاة للرثاء من أية جريمة.»

«هل تعتقد... أن الخوف وحده... دائمًا... هو الذي يوقف الناس؟ ألا يكون، ألا يمكن أن يكون الخجل... الخجل من أن يفتح المرء قلبه... أن يتعرّى أمام الجميع؟»

رفع عينيه متعجّبًا. لم يتعود منها أن تتدّخل. ولكن الكلمة خلبت لبّه.

«الخجل، تقولين... ولكن... ليس سوى شكلٍ من أشكال الخوف... خليق بالثناء لا محالة... ولكن ليس شكلًا من أشكال العقاب، أجل... أتفهم...»

كان قد نهض، وهو نهبٌ لتوتّر غريب، يذرع الغرفة طولاً وعرضًا. بدا أن تلك الفكّرة أثّرت فيه وحرّكت بداخله شيئًا يردّ

الفعل بعنف. فجأةً، توقف.

«لا أمانع... الخجل أمام الآخرين، أمام الأغراب... أمام عامة الناس التي تستلذ في الصحف حكايات الآخرين... ولذا تحديدًا ينبغي على الأقل أن نُسرّ بأمرنا لأقربائنا.. [تتذكرين مضرم الحرائق الذي دافعت عنه العام الماضي... ذلك الذي استلطفني بشكل غريب... كان يحكي لي كلّ شيء، طرائف عن طفولته... وحتى أشياء حميمة... كان مذنبًا دون شك، وقد صدر ضدّه حكم على أية حال... ولكنه لم يعترف لي أنا بشيء... في الواقع، كان الخوف من أن أخونه... وليس الخجل، لأنه كان يوليني ثقته، هذا أكيد... أعتقد أني الوحيد الذي شعر نحوه بنوع من العطف في حياته... لم يكن الخجل أمام الأغراب... ماذا كان إذن، والحال أن بإمكانه أن يثق في شخص؟»]

«ربّما...» اضطرّت أن تشيح عنه وجهها لأنه كان ينظر إليها بإمعان وأحسّت صوتها يرتجف. «ربّما... نحسّ بالخجل... أمام أناس... نحسّ أننا منهم أقرب.»

توقف فجأةً، كأنه تحت سلطة قوة داخلية.

«إذن أنت تظنين... تظنين...» وبغتة تغير صوته، وصار رقيقا شفيفا... «تظنين أن هيلين... كان يمكن أن تعترف بخطئها بكيفية أسهل لشخص آخر... المربية ربّما...»

«أنا متأكدة من ذلك... إن كانت قد أظهرت أمامك كل تلك المقاومة... فلأنّ... لأنّ حكمك أهم لديها من أي شيء...

لأن... لأنك... أنت الذي تحبّه هي أكثر من سواه...»

توقف من جديد.

«أنت... أنت على حق ربّما... نعم، بل بالتأكيد... ولكن هذا غريب... هذا أمر لم يخطر ببالي قط... [رغم أنه بسيط... لعلّي كنت شديد الصرامة، أنت تعرفينني... لست كذلك طبعًا. ولكني سأذهب في الحين لأراها... يمكن أن تذهب إلى الحفلة بكل تأكيد... إنما أردت عقابها بسبب عنادها، ومقاومتها و... قلة ثقتها فيّ...] ولكن أنت محقّة، لا ينبغي أن تظني أنني غير قادر على الصفح... لا أريد هذا... لا أريده، خصوصًا إذا جاء منك أنت يا إيرين...»

تطلّع إليها فأحسّت باحمرار وجهها تحت نظرته. هل ثمّة نية خلف كلماته، أم أنها لم تكن سوى صدفة، صدفة ماكرة وخطيرة؟ كانت لا تزال تحسّ في نفسها بذلك التردّد المرعب.

«نُقض الحكم» -بدا أن نوعًا من البشاشة قد شمله- «تمّت تبرئة هيلين، وأنا الذي سيعلن لها ذلك. هل أنت الآن راضية عنّي؟ أم أنك ترغبين في شيء آخر؟... أرأيت... أرأيت أنني اليوم ذو مزاج كريم... لعل ذلك لكوني سعيدًا بتفطني للمظلمة في الوقت المناسب. إن في ذلك انفراجًا يا إيرين، دائما...»

ظنّت أنها فهمت معنى ذلك الإلحاح. اقتربت منه دون أن ترغب في ذلك. كانت تحسّ بالكلمة تذوب بداخلها. هو أيضًا تقدّم، كأنه يريد بسرعة أن يأخذ منها ما أثقلها حمله. قابلت نظرته، نظرة قرأت

فيها رغبة شرهة في أن تعترف، أن تبوح قليلاً... انتظار ممض، وفجأة انهار كل شيء بداخلها. انحطت يده في سأم، وحوّلت نظرها. غير مجدٍ، كانت تحسّ بذلك، لن تتوصّل أبدًا إلى التلفّظ بالكلمة المحرّرة التي تضرم أحشاءها وتنهش راحتها. من رعد وشيك، كان الإنذار يدمدم، ولكنها كانت تعلم أنها لا تستطيع الفرار. وفي أكثر رغباتها سرية، كانت تدعو ما كانت دائمًا تخشاه حتى تلك اللحظة، الصّاعقة المخلّصة: الإفشاء.

بدا أن رغبة إيرين تريد أن تتحقق أسرع مما كانت تتوقع. كانت تصارع منذ أسبوعين وباتت تحسّ بأن قواها قد خارت. كانت قد مرّت أربعة أيام دون أن تظهر المرأة؛ وكان الخوف قد تسرّب في جسدها وامتزج بدمها حتى صارت تندفع كلّما سمعت رنينًا بالباب كي تلتقط في الوقت المناسب رسالة المساومة. كان في تلك الغربة الشرهة تلهّف، توق تقريبًا، لأنها في كلّ مبلغ تعطيه تشتري راحة سهرة، بضع ساعات هنيئة للتفسّح رفقة طفليها. [يمكنها عندئذٍ أن تتنفّس، على مدى سهرة، نهار، أن تتجوّل في الشارع وتزور الأصدقاء. ولكن أن تنام على صواب: كان يحفظ اليقين بأن الخطر قريب، باستمرار؛ هو لا ينخدع بعزاء طفيف، وفي أثناء الليل، يبث بداخلها كوابيس فظيعة.

عندما رنّ الجرس، أسرعت مرّة أخرى لفتح الباب، رغم أنها تدرك أن تلك العجلة في استباق الخدم ستثير الشكوك وتجرّ احتمالات مسيئة. ولكن المقاومات الواهنة التي يوحي بها العقل تلغى تقريبًا

حالما تسمع الهاتف، أو خطى في الشارع، أو جرس الباب، إذ سرعان ما ينتفض كامل جسدها كأنما جُلد بسوط.] هزّها الجرس من جديد ودفعها من الغرفة حتى البابِ؛ فتحت فاستغربت في البداية لرؤية سيدة مجهولة. ثم تراجعت مرتعبة إذ عرفت في تلك الهيئة الجديدة وتحت قبعة فاخرة، وجه المبتزّة الكره.

«آه! هذا أنت يا مدام فاغنر! أنا سعيدة برؤيتك. عندي شيء مهم أريد أن أقوله لك.» ودون أن تنتظر ردّ إيرين، وكانت مرتعبة، تستند بيد مرتعشة إلى أكرة الباب، دخلت ووضعت مظلتها: مظلة ذات حمرة فاقعة، من أوائل مقتنياتها في الظاهر بفضل مال الابتزاز. كانت تتنقل في ثقة مذهلة، كأنها في بيتها، وهي تتملّى في رضًى ونوع من الارتياح ثراء التأثيث، وواصلت طريقها، دون أن تُدعى، إلى باب الصالون الموارب. «من هنا، أليس كذلك؟» قالت في سخرية مكتومة. وعندما حاولت إيرين، وكانت مذعورةً وعاجزةً عن الكلام، أن تسدّ عليها الطريق، أضافت كي تطمئنها: «يمكن أن نسوّي المسألة بسرعة، إن كان هذا يزعجك.»

تبعتها إيرين دون أن تردّ. كان حضور المبتزّة في عقر دارها قد أصابها بالذهول. هذه الجرأة تجاوزت كل ما تخيّلته من أمور مرعبة. خيّل إليها أن كلّ هذا حلم.

«جميل بيتك، جميل جدًّا» قالت المرأة بإعجاب ورضى ظاهر، وهي تجلس. «آه! يا لها من جلسة مريحة! وكلّ هذه اللوحات!

هنا نعي مدى بؤسِنا. بيتك جميل جدًّا، جميل جدًّا مدام فاغنر.»

انفجرت إيرين، وهي تتعذب لرؤية تلك المجرمة تجلس جلسة مريحة في صالونها، «ماذا تريدين، أيتها المبتزّة! تتبعينني حتى بيتي. ولكني لن أدعك تعذبينني حتى الموت. سوف...!»

«لا ترفعي صوتك»، قاطعتها المرأة في ألفة جارحة. «ماذا دهاك؟ الباب مفتوح والخدم يمكن أن يسمعوك. أنا لا يهمني. إلهي، ليس في نيّتي أن أنكر. على كلّ حال، لن يكون السّجن أسوأ من الآن، من عيشة الكلاب التي أحياها. ولكن أنت، يا مدام فاغنر، ينبغي أن تكوني أكثر حذرًا. سأبدأ بغلق الباب، ما دمت ترين في الهياج فائدة. ولكن أحذّرك: الشتائم، ليس لها عليّ أيّ تأثير.»

انهارت طاقة إيرين، التي تماسكت لحظة بالغضب، أمام عزيمة تلك المرأة. ومثل طفل ينتظر أن يقال له ما ينبغي فعله، ظلت واقفة، قلقة وشبه مستسلمة.

«لن ألفّ وأدور يا مدام فاغنر. أواجه عدّة مشاكل، وأنت تعلمين. سبق أن قلت لك ذلك. اليوم أنا في حاجة إلى بعض المال كي أسدّد دينًا. مرّ وقت طويل منذ أن استوجب عليّ تسديده، وهذا ليس كلّ شيء! أريد أن أرتّب أموري. لذا جئتُك كي تخلّصيني من الورطة وتعطيني... لنقل أربعمائة كرونة.»

«لا أستطيع»، غمغمت إيرين، مرتعبة من المبلغ الذي لا تملكه نقدًا بطبيعة الحال. «أؤكّد لك أني لا أملك هذا المبلغ.

لقد أعطيتك ثلاثمائة كرونة هذا الشهر. من أين تريدينني أن آخذها؟»

«ستتصرفين، ما عليك إلا أن تفكّري! امرأة في مثل ثرائك تستطيع أن تحصل على المال بالقدر الذي تريد. ولكن ينبغي أن تريد ذلك! هيّا، فكّري قليلاً، مدام فاغنر، ستجدين حلاً.»

«ولكني لا أملكها، أؤكد لك. أقبل أن أعطيك إياها، ولكن ليس لي هذا المبلغ. أعطيك مبلغا قيمته... مائة كرونة ربّما...»

«تلزمني أربعمائة كرونة، قلت لك.» أطلقت تلك الكلمات بعنف، وكأنها شُتمت بذلك المقترح.

«ولكني لا أملكها!» هتفت إيرين يائسةً، وهي تفكّر أن زوجها في طريق العودة ويمكن أن يصل بين فينة وأخرى. «أقسم لك، ليس لديّ هذا المبلغ...»

«إذن اسعي للحصول عليها...»

«لا أستطيع.»

قاستها المرأة من رأسها إلى أخمص قدميها، كأنها تقيّمها.

«على مهلك... هذا الخاتم مثلاً... لو نرهنه فسيلبّي الطلب. صحيح أني لا أفهم شيئًا في المجوهرات... بما أنّي لم أحصل عليها قطّ... ولكن يبدو لي أننا يمكن أن نغنم منه أربعمائة كرونة...»

«هذا الخاتم!» صاحت إيرين. كان خاتم خطوبتها، الوحيد الذي لا تنزعه أبدًا. كان مرصّعًا بحجارة كريمة ثمينة تضفي

عليه قيمة كبرى.

«ولِمَ لا؟ وسأرسل إليك وثيقة الرهن، وبذلك يمكن استرجاعه متى تشائين. ستسترجعينه طبعًا! لا أريد أن أحتفظ به. ماذا ستفعل امرأة بائسة مثلي بخاتم باذخ؟»

«لماذا تضطهدينني؟ لماذا تعذبينني؟ لا أستطيع... لا أستطيع. ينبغي أن تفهمي... رأيت أني فعلت ما أستطيع. ينبغي أن تفهمي. ارحميني!»

«ولكن أنا لم يرحمني أحد. تركوني أموت جوعًا أو أكاد. لماذا تريدينني أن أشفق على امرأة غنيّة مثلك؟»

كانت إيرينستردّ بعنف، حين تجمّد دمها بغتة. سمعت الباب يُصفق خارج البيت. لا شكّ أنّ زوجها قد عاد من مكتبه. دون أن تفكّر، نزعت الخاتم من إصبعها وأعطته إلى المرأة التي دسّته بخفّة.

«لا تخافي. أنا ذاهبة في الحال»، قالت ذلك إذ لاحظت على وجه إيرين ذعرًا لا يوصف، ولمحت الانتباه الحادّ الذي توليه لخطوات رجل تُسمع بوضوح في الردهة. فتحت المرأة الباب، حيّت زوج إيرين حين دخل فنظر إليها لحظة دون تدقيق، ثم توارت.

«هي امرأة تريد إرشادات»، شرحت إيرين وهي مفرغة القوى، ما إن انغلق الباب خلف المرأة. مرّت اللحظة الأكثر رعبًا. لم يعلّق زوجها بكلمة، دخل بهدوء إلى قاعة الأكل حيث كانت المائدة جاهزة للغداء.

خيّل لإيرين أن الهواء يحرق إصبعها في المكان المحميّ في العادة بنداوة الخاتم، وأن الجميع يرون على إصبعها العاري أثر الحرق. خلال الغداء، حاولت باستمرار إخفاء يدها، ولكن حواسها المتوترة كانت تعبث بها، وتوهمها بأن عيني زوجها لا تفارقان تلك اليد، تتبّعانها في أدنى تنقلاتها. بذلت كل جهودها كي تحوّل نظره، وألقت ألف سؤال لفتح باب النقاش. لم تكفّ عن الحديث إليه، ومخاطبة الطفلين، والمربية، وسؤالهم بغير انقطاع لإذكاء النقاش، ولكن النفَس كان يعوزها دائمًا، ويسكن الاهتمام كلّ مرّة مثل نار تخمد. حاولت أن تبدي الفرحة وأن تجرّ الآخرين إلى تلك الفرحة، وتداعب الطفلين بإثارة أحدهما ضدّ الآخر، ولكنها لم تفلح لا في خلق خصومة ولا في إثارة الضحك. كانت تشعر أن في مرحها شيئًا مزيّفًا، وأنّها تزعج الجميع دون وعي. وكلّما أرهقت نفسها، قلّ نجاحها، فشملها في النهاية مللٌ وسكتت.

كان الآخرون أيضًا يلزمون الصّمت. فلم تكن تسمع غير رنين الأطباق، وتضخّم شائعات القلق بداخلها. فجأةً سألها زوجها: «أين إذن خاتمك اليوم؟»

انتفضت. شيء بداخلها صاح: انتهى! بيْد أن غريزتها كانت لا تزال تقاوم. ينبغي تجميع قواي، الآن، قالت في نفسها. فقط لأوان جملة، كلمة. أن تجد مرّة أخرى كذبة واحدة، كذبة أخيرة.

«أنا... أعطيته للتنظيف.»

وكأنها قوّتها تلك الكذبة، أضافت بنبرة عازمة: «بعد غد أذهب

لاسترجاعه.» بعد غد. صارت الآن مكبّلة؛ إن أخفقت، انهارت بالضرورة كذبتها، وانهارت هي معها. لقد حدّدت بنفسها الأجل، وذلك الخوف الملتبس مازجه فجأةً شعور جديد، كالسّعادة بمعرفة أن الحلّ وشيك. بعد غد: صارت تعرف الآن الأجل وتشعر أن هذا اليقين يغمر كربها بارتياح غريب. شيء مّا كان يكبر بداخلها، قوّة جديدة، قوّة الحياة وقوّة الموت.

اليقين الذي حازته أخيرًا بأنّ الحلّ وشيك بدأ يبثّ فيها صفاءً غير منتظر. وبأعجوبة، ناب عن التوتر تأمّل رصين، وعن الخوف شعور تجهله، سِلم بلورية أرتها فجأةً أشياء الحياة بشفافية، وبقيمتها الحقّ. قيّمت حياتها ولاحظت أنها لا يزال لها وزنها؛ لو يسمح لها بأن تحافظ عليها وتثريها بالدلالة الجديدة والأشدّ نبلاً، تلك التي كشفتها أيام الجزع الأخيرة، إن استطاعت أن تبدأ من جديد حياة دون شوائب، هادئة، خالية من الكذب، فستكون مستعدّة. ولكن أن تجرّ وراءها حياة امرأة مطلّقة، خائنة، ملوّثة بالفضيحة، فقد سئِمت. سئِمت أيضًا من مواصلة هذا اللعبة الخطرة المتمثلة في شراء راحة بالها والحصول على ذلك لوقتٍ وجيز. كانت تشعر أن المقاومة لم تعد واردة، فالنهاية تقترب، وهي تخشى أن يفضحها زوجها، ولداها، كلّ ما حولها، وأن تفضح نفسها بنفسها هي أيضًا. الفرار مستحيل أمام خصم يبدو أنه حاضر في كلّ مكان. والاعتراف، ذلك الالتماس المؤكد، كان متعذّرًا عليها بلوغه، صارت الآن تدرك ذلك. طريق واحدة لا تزال سالكةً، ولكن بغير عودة.

[كانت الحياة لا تزال تزخر بالمغريات. كان يومًا من أيام الربيع الصّافية، كما يتجلّى أحيانًا في عزّ الشتاء. نهار ذو سماء زرقاء إلى ما لا نهاية، يعطي علوّها انطباعا بأن التنفس ممكن أخيرًا بعد كلّ أيام الشتاء المظلمة.

أسرع الطفلان وهما يلبسان لأوّل مرّة في السّنة ثيابًا زاهيةً، وجهدت كي لا تردّ بالدّموع على فرحتهما الغامرة. ما إن انقشع داخلها الصدى المؤلم لضحكات الطفلين، قرّ منها العزم على تنفيذ خططها. كانت تنوي أوّلا استرجاع خاتمها، فأيًّا ما يكن المصير الذي ينتظرها، لا ينبغي أن يشوّه ذاكرتها أدنى شكّ، ولا ينبغي لأي شخص أن يكون له دليل قاطع على ذنبها. لا ينبغي أبدًا أن يشكّ أحد، خاصّة طفلاها، في السرّ الخطير الذي انتزعها منهما؛ ينبغي أن يبدو مثل صدفة، لا يُسأل عنها أحد.

ذهبت أوّلا إلى «جبل التقوى»[3] لترهن حليّا عائليًّا لا تكاد تلبسه للحصول على مبلغ كاف تستطيع بفضله أن تشتري من المرأة الخاتم الذي يفضحها. شعرت بثقة أكبر عندما حصلت على المال وواصلت طريقها بغير هدى، وهي تتمنّى في قرارة نفسها ما كانت تخشاه أكثر من سواه منذ يوم: أن تلتقي بالمبتزّة.

كان الجوّ لطيفًا، مع لمسة شمس فوق البيوت. بدت قوّة الريح المندفعة وهي تلاحق السّحب البيضاء في السّماء كأنّها تؤثر في مشية النّاس، إذ كانوا أسرع نسقًا وأخفّ خطى ممّا كانوا خلال تلك الأيام

---

(3) مؤسسة خيريّة يرهن لديها المحتاجون متاعهم.

الشتوية الغسقية الكئيبة. خيّل إليها أنها تشعر بشيء من ذلك. فكرة الموت، التي خطفتها البارحة خطفًا، اتّخذت أبعادًا وحشية لا تخضع لمنطق. أيُعقل إذن أن تدمّر كلمة امرأة شرسة كلّ هذا: تلك البيوت ذات الواجهات اللاّمعة، تلك السّيارات التي تسير بأقصى سرعةٍ، أولئك الناس الذين يضحكون وهذا الطنين، طنين الدم في عروقها؟ هل لكلمةٍ واحدةٍ سلطةُ إطفاء الشعلة الأبدية التي يظهرها العالم كلّه في قلبه النابض؟

لم تتوقّف عن المشي، ولكن لن تنكس نظرها هذه المرة: الحواس متيقظة، وكأنّها مترعة بالرغبة الشرهة في العثور أخيرًا على تلك التي طالما بحثت عنها. الطريدة الآن هي التي تقفو أثر الصيّاد؛ وكمثل حيوان مطارَد، في وضع ضعف، يحسّ أنه لم يعد بوسعه أن يهرب، استدارت بقوة اليأس لتهاجم الملاحِقة مواجهة مباشرة، وقد بات أملها أن تجد نفسها وجهًا لوجه مع مضطهِدتها وأن تقاتل بالقوّة القصوى التي تمنحها غريزة الحياة لليائسين.

ظلت عمدًا قرب بيتها، فهناك اعتادت المبتزّة أن ترصدها. بل إنّها قطعت الطريق على عجلٍ في لحظة مّا لأن ملابس امرأة مارّة ذكرتها بالتي تبحث عنها. فات أوان صراعها من أجل الخاتم، صراعٌ لا يسمح على أيّة حال بالخلاص بل بالإرجاء. وبالعكس ما كانت تطلبه بقوة هو هذا اللقاء الذي يمثّل إشارةً من القدر تحيل على سلطةٍ عليا تقرّر الحياة أو الموت، أمّا استرجاع الخاتم فهو رهين قرارها هي. ولكن لا أثر للمرأة في أي مكان. لقد اختفت في المتاهة

المعقّدة للمدينة الضخمة، مثل فأر في جحره. كانت خائبة، ولكن دون أن تفقد الأمل بعد، عادت إلى بيتها في منتصف النهار ثم استأنفت بعد الغداء أبحاثها غير المجدية. جعلت تجوب الشوارع، فلمّا فشلت في العثور عليها عاودها الرعب الذي كادت تنساه. لم تَعُد تلك المرأة أو الخاتم هو ما يزعجها، بل لغز تلك اللّقاءات المرعب الذي ما عاد العقل يستطيع فهمه. في ما يشبه السّحر، اكتشفت تلك المرأة اسمها وعنوانها، وعرفت عاداتها ونمط عيشها في بيتها؛ تصل دائمًا في اللحظة الأشدّ رعبًا وخطورةً، والآن وقد باتت منتظَرة، اختفت تمامًا. لا شكّ أنها في مكان مّا من هذه الجلبة العارمة، أقرب ما تكون حين تشاء، وفي منَعة حالما نرغب في رؤيتها. ذلك التهديد ذو الأبعاد غير المحدّدة، وذلك الحضور الهارب للمبتزّة التي تحاصر حياتها دون أن تُمسَك، يرهق آخر قوى إيرين ويسلمها بلا زادٍ إلى ضيق ما فتئ يزداد روحانية. لكأنّ قوى شرّيرة اتفقت على هلاكها لما في تراكم الصدف المعادية ما يوحي بأنها تسخر من ضعفها. متوتّرة، وبخطى متشنّجة، كانت تجوب نفس الشارع. مثل عاهرة! قالت في نفسها. ولكن المرأة ظلّت لا تُرى. الظلام فقط أقبل ينشر ظلّه المهدّد. في ذلك المساء الربيعي الوجيز، صار لون السّماء الصّافي قذرًا ومشؤومًا، وهبط اللّيل بسرعة. أضيئت في الشارع مصابيح، وارتدّ مدّ المارة بشكل أسرع إلى البيوت، وبدا أنّ كلّ أثر للحياة يُلغي نفسه، محمولاً بذلك التّيار المظلم. واصلت إيرين ذرع المكان بعض الوقت، ورقبت مرّة أخرى الشارع في أمَلٍ أخير، ثم عادت إلى البيت. وكانت تشعر بالبرد.

صعدت المدرج في مللٍ. تناهى إلى سمعها نقل الطفلين إلى فراشيهما في الغرفة المجاورة، ولكنّها تحاشت تحيّتهما، تجنّبت أن تفارقهما لليلةٍ مع نيّة اللّيل الأزلي. ثم ما جدوى أن تراهما الآن؟ كي تستلذّ سعادةً تامّة في قُبَلهما الحاميةِ والحبَّ في وجهيهما المشرقين؟ ما جدوى أن تعذّب نفسها بفرح كفّ أن يكون لأجلها؟ صرّت أسنانها: كلاّ، لم تَعُد تريد أن تذوق شيئًا من الحياة، لا شيء من جوانبها البهيّة الضاحكة التي تشدّها بذكرياتٍ عديدة، إذ هناك روابط كثيرةٌ ستضطرّ إلى قطعها غدًا دفعةً واحدةً. كانت لا تريد أن تفكّر إلاّ في الملامح المنفّرة، الدّنيئة، التّافهة، في مصيبتها، في المبتزّة، في الفضيحة، في كلّ ما يطاردها، ويدفعها إلى الهاوية.

قطعت عليها عودة زوجها هذا التأمّل المعتم المنعزل. بلطفٍ، ولكي يفتح نقاشًا دافئًا، حاوَل أن يقترب منها وهو يتحدّث، وسألها عدّة أسئلة. قدّرت أنّها لمست توتّرا مّا في هذا الاهتمام النّشيط المفاجئ، ولكن ذكرى كلامهما البارحة جعلها تمتنع عن أي نقاش. نوعٌ من الخوف كان يمنعها من أن ترتبط عن حبّ أو تبقى عن مودّة. بدا، وقد شمله بعض القلق، أنه يحسّ بضيقها. أمّا هي فكانت تخشى أن يحاوِل، وهو في قلقه، الاقتراب منها من جديد، فعجّلَت بتوجيه تحيّة المساء نحوه. «إلى الغد»، أجابَ. ثم غادرَ الغرفة.

الغد: كم هو قريب وبعيد بشكلٍ لا يُحدّ! بدت لها هذه الليلة الخالية من النوم مظلمة بشكل رهيب ومغالٍ. شيئًا فشيئًا، تضاءلت أصوات الشارع، وفهمت أنّ الأنوار في الخارج أطفئت. كان يخيّل

إليها أحيانًا أنها تحسّ عن قرب بأنفاس قادمةٍ من الغرف الأخرى، حياة طفليها، وزوجها، والكون كلّه، قريب وبعيد رغم ذلك، وقد غشي عليه بعد. في الوقت نفسه، ثمّة سكونٌ عجيب لا يبدو قادمًا من الطبيعة، من العالم المحيط، بل من نفسها هي، من نبع يهسّ هسيسًا غريبًا. كانت تحسّ كأنها حبيسة تابوت، وسط سكون لا ينتهي، مع ظلمة سماوات خفيّة فوق صدرها. أحيانًا، في تلك الظلمة، تعدّ السّاعةُ الجدارية السّاعات عاليًا، ثم يصير الليل أسود خاليًا من الحياة. ولكن لأوّل مرّة خيّل إليها أنها فهمت معنى ذلك الظلام الفارغ الذي لا يُسبر له غور. لم تَعُد الآن تفكّر في الفراق أو الموت. كانت تفكّر فقط كيف تجد ملاذًا خفيًّا لتُجنِّب نفسَها وطفليها عارَ الفضيحة. تفكّر في كلّ الوسائل التي تعلم أنها تؤدي إلى الموت، وتستعرض كلّ إمكانات قتل نفسها إلى أن تذكّرت فجأةً، بمزيجٍ من الذعر والفرح، أنها أثناء إصابتها بمرض مؤلمٍ سبّب لها الأرق، وصف لها الطبيب المورفين. وكلّ مرّة، كانت تتناول بضع قطرات من ذلك السمّ الحلو المرّ، من قنّينةٍ صغيرة يكفي محتواها، كما قيل لها، كي يموت المرء بهدوء. أوه، ألاّ تُطارَد بعدَها، أن تستريح، تستريح حتّى نهاية الأزمنة، ألاّ تحسّ الخوف بعدئذٍ يطرق قلبها! في سهدها، فتَنتَها فكرة الانطفاء رويدًا رويدًا. خيّل إليها أنّها بدأت تحسّ بطعم السمّ على شفتيها، وتحسّ أنّها تغوص في هذيان لذيذ. قوّمت جذعها فجأةً وأنارت الغرفة. كانت القنّينة التي لم تضع وقتًا كثيرًا في العثور عليها ملآنةً حتّى النّصف، وخشيَت ألاّ يكفيها ذلك القَدْر. راحت تفتّش بتوتّر في كلّ الأدراج إلى أن عثرت على الوصفة التي ستسمح

بأن تُحضَّر لها كميةٌ أكبر. طوَتها باسمة، مثل ورقة مالية ثمينة: باتت تمسك موتها في يدها. اعترتها رجفةٌ باردة، ولكنّها كانت واثقة. كانت تستعدّ للنّوم حين مرّت أمام المرآة المضاءة، فرأت صورتها فجأةً في ذلك الإطار المعتم تهلّ أمامها، شبحيّة، ممتقعةً، محوّقة العينين، وهي ملتفّة في قميص نومها الأبيض كالكفن. شملها رعب، فأطفأت النّور، ولاذت بالسّرير الذي تركته مرتجفة، وظلّت صاحية حتى مطلع الفجر.

في الصباح، أحرقت رسائلها، ورتّبت كلّ الأشياء الصغيرة، وتجنّبت قدر الإمكان أن ترى طفليها، وكلّ ما هو عزيز عليها. صارت رغبتها الوحيدة أن تمنع الحياة، بأفراحها ومغرياتها، من التشبّث بها، وتصعّب عليها، بجعلها تتردّد دون جدوى، القرار الذي اتخذته. ثمّ خرجت إلى الشارع مرّة أخرى، مرّة أخيرة، كي تغري القدر وتلتقي بالمبتزّة. من جديد، راحت تجوب الشوارع، ولو دون تحمس. شيء مّا بداخلها كان قد ارتخى، وخشيت أن تضطرّ إلى المقاومة وقتًا أطول. لم تتوقّف عن المشي، طيلة ساعتين، كأنها تؤدّي واجبًا. والمرأة لا تُرى في أيّ مكان. ولكن لم يَعُد يؤلمها ذلك. بل إنّها لم تَعُد تتمنّى ذلك اللقاء، لما صارت تحسّ به من وهنٍ. كانت تتطلّع إلى وجوه النّاس فيبدون لها أغرابًا كلّهم، أمواتًا، بلا حياة على أيّة حالٍ. كل ذلك صار في وجه مّا بعيدًا، ضائعًا، ولم يعد ملكًا لها.

ولكنها في لحظة اهتزت. وهي تلقي نظرة حولها، خيّل إليها أنها أحسّت فجأة من الناحية الأخرى للشارع، وسط الجلبة، نظرة

زوجها، تلك النظرة الغريبة، القاسية، النفاذة التي لم تعهدها فيه إلاّ مؤخرًا. ركّزت نظرها على المكان مغتاظة، ولكن ما لبث الطيف أن اختفى خلف سيّارة مارّة، ثم اطمأنت لعلمها أن زوجها في تلك السّاعة لا يزال مشغولاً في المحكمة. وهي ترقب بلا توقف، فقدت مفهوم الوقت، فعادت إلى الغداء متأخّرة. زوجها أيضًا لم يَعُد بَعْد، خلافًا لعادته؛ وصَلَ متأخّرًا بدقيقتين وبدا لها متوتّرًا بعض الشّيء.

صارت الآن تعدّ السّاعات التي تفصلها عن المساء، وارتعبت أن ما بقي كثير، واستغربت أنّ الوداع لا يستوجب غير وقت قليل، وأن الأشياء قليلة الأهمية إذا كنا نعلم أننا لن نحملها معنا. استبدّ بها نوع من الخمول. نزلت إلى الشارع بحركة آلية، وسارت بغير هدى، دون أن تفكّر أو أن تبصر شيئًا. عند مفترق طرق، كبح حوذيٌّ خيوله في آخر لحظة، فرأت أن العريش كان منها على بعد إصبعين وكاد يصدمها بعنف. أطلق الحوذيُّ تجديفًا سمجًا فلم تلتفت إليه إلاّ عرَضًا: كان يمكن أن ينقذها أو يعجّل أجلها. كان يمكن للصدفة أن تجنّبها اتّخاذ قرارها. واصلت طريقها برغم الملل. كان ممتعًا ألاّ يفكّر المرء في أيّ شيء، ألاّ يداخله سوى ذلك الشعور المبهم المعتم للنهاية، نوع من ضباب ينزل ببطءٍ ويلفّ كل شيء.

عندما رفعت عينيها صدفةً لترى اسم الشارع، انتفضت: صدفةُ تسكّعِها قادتها قرب بيت عشيقها الأسبق. هل هي علامة؟ ربّما لا يزال بوسعه أن يساعدها، لا شكّ أنّه يعرف عنوان تلك المرأة. كادت ترتعد من شدّة الفرح. كيف لم يخطر ببالها هذا الأمر الأكثر

بساطة؟ فجأةً أحسّت بأعضائها تنتعش، وبالأمل ينفخ أفكارها الخاملة التي بدأت تتحرّك في فوضى. ينبغي أن يرافقها إلى تلك المرأة لفضّ المشكلة نهائيًّا. ينبغي أن يهدّدها كي تكفّ عن ابتزازها. قد يكون المال كافيًا لإبعادها من المدينة. تأسّفت فجأةً لإساءتها معاملة الشاب المسكين مؤخرًّا، ولكنّه سيساعدها، هي واثقة. كم كان غريبًا ألاّ يظهر هذا الحلّ إلاّ الآن، في الدقيقة الأخيرة!

صعدت المدرج وضغطت الجرس. لم يفتح أحد. أنصتت. خيّل إليها سماع خطى تدبّ بخفة وراء الباب. ضغطت مرّة ثانية. السكون من جديد. ومن جديد صوتٌ خافتٌ من الدّاخل. نفد صبرها، فضغطت بغير توقّف، فحياتها كانت محلّ رهان.

أخيرًا تحرك شيء خلف الباب، طقطق القفل، وفتح الباب قليلاً. «هذه أنا»، قالت بصوت خافتٍ.

وكأنّ ذعرًا ألمّ به، فتح الباب.

«هذه أنت... سيّدتي العزيزة»، غمغم محرجًا. «أنا... لا سامحيني... لم أكن... أنتظر... مجيئك... اغفري لي هيئتي.» أشار إلى كمّيه؛ كان قميصه مفكوك الأزرار حتى النّصف، من دون ياقة.

«لا بدّ أن أكلمك لأمرٍ مستعجل... يجب أن تساعدني»، قالت، وقد انزعجت من كونه أبقاها واقفةً في الممرّ كالمتسوّلة. «ألا تتركني أدخل وتسمعني دقيقة؟» أردفت في نبرة غاضبة.

«بكلّ سرور»، تمتم محرجًا، وهو يلقي نظرة إلى الجانب، «ولكن

في هذا الظرف... أنا لا...»

«ينبغي أن تسمعني. فالذنب ذنبك على أيّة حال. من واجبك أن تساعدني... ينبغي أن تحصل لي على هذا الخاتم، ينبغي... أو أعطني عنوانها، على الأقلّ... هي لا تكفّ عن ملاحقتي، والآن اختفت... لا بدّ لي منه، أتسمعني، لا بدّ.»

كان ينظر إليها مذهولاً عندئذٍ فقط أدركت أنّها كانت تقول عبارات متقطّعة، غير متناسقة بالمرّة.

«آه! صحيح... لا تعلم... جميل! عشيقتك، السّابقة، تلك المرأة الشرسة لمحتني خارجة من عندك آخر مرّة، ومنذ ذلك الوقت وهي تُطاردني، وتبتزّ منّي أموالاً... تعصُرني حدّ الموت... والآن انتزعت منّي خاتمي، وهذا الخاتم لا بدّ لي من استرجاعه. من الآن حتّى هذا المساء، ينبغي أن يكون بحوزتي، قلتُ لك، من الآن حتّى هذا المساء... هل تساعدني؟»

«ولكن... ولكني...»

«هل تقبل، نعم أم لا؟»

«ولكنّي لا أعرف امرأةً شرسةً. لا أدري عمّن تتحدّثين. لم يكن لي قطّ علاقة بمبتزّات.» كان فظًّا تقريبًا.

«هكذا إذن... أنت لا تعرفها. هي اختلقت كلّ شيء إذن! بيد أنّها تعرف اسمي وعنواني. وليس صحيحًا أيضًا أنّها تمارس المساومة! لعلّي أحلُم، ربّما!»

ندت عنها ضحكة حادّة. أحرجته كثيرًا. خطر بباله للحظةٍ أنها مجنونة، لشدّة لمعان عينيها. سلوكها كان غريبًا، وكلامها مشوّشًا. أجال النّظر حوله خائفًا.

«أرجوك يا مدام... اهدئي... أؤكد لك أنّك مخطئة. هذا مستحيل تمامًا، لا شكّ... كلاّ، لا أفهم شيئًا! لا أعرف امرأة من هذا القبيل. أنا هنا منذ مدّة قصيرة، وأنت تعلمين، والعلاقتان اللتان عقدتهما ليستا أيضًا... لا يمكن أن أعطي أسماء، ولكن... ولكن هذا فعلاً أمرٌ سخيف... أؤكّد لك أن في المسألة خطأ...»

«لا تريد مساعدتي؟»

«بلى... إن كان بوسعي.»

«إذن... تعال! لنذهب معا إلى بيتها.»

«بيت من تكون... بيت من؟» عندما أمسكته من ذراعه، عاوده خوف مرعب من أن تكون مجنونة.

«في بيتها هي... تريد، أم لا تريد؟»

«طبعًا... طبعًا» -دعّم الإصرار الذي كانت تنكّد به عليه ظنونه- «طبعًا... طبعًا...»

«تعال إذن... بالنسبة إليّ، هي مسألة حياة أو موت!»

قاوم ضحكة كادت تغلبه. وفجأةً، خاطبها ببرود.

«اعذريني، سيّدتي... ليس ممكنًا الآن... لي درس بيانو... لا يمكن أن أنقطع عنه...»

«آه... هكذا إذن...» -وانفجرت في وجهه ضاحكة- «هكذا تعطي دروسًا في البيانو... مشمّر القميص... يا لك من كذّاب!» وفجأةً، مدفوعةً بنيّةٍ مّا، اندفعت داخل الشقّة. حاوَل منعها. «هي عندك أيضًا، تلك المبتزّة! أنتما مرتبطان في نهاية المطاف. وربّما تقتسمان ما تبتزّه مني. ولكنّي سأظفر بها! لم أعد أخاف شيئًا، الآن!» كانت تصرخُ. أمسَكَ بها، ولكنها تمرّدَت، وتملَّصَت واندفعَت في اتّجاه باب غرفة النوم.

طيفٌ، شخصٌ كان ينصت من وراء الباب، تراجع بخفّة. نظرت إيرين مشدوهةً إلى سيّدة مجهولةٍ، مشوّشة الزّينة، سارعَت بالإشاحة بوجهها. كان عشيقها قد لحق بإيرين كي يمنعها، وهو يظنّ أنّها فقدت صوابَها، ويتجنّب مصيبة؛ ولكنها كانت تغادر الغرفة. «اعذرني»، تمتمت. كانت مبلبلة الذهن، استبدّ بها اشمئزاز، اشمئزاز لا ينتهي، وإرهاق.

«اعذرني»، أعادت حين رأته يتبعها بعينيه، محتارًا. «غدًا... غدًا ستفهم كلّ شيء...، لو تدري، أنا... أنا أيضًا لم أعد أفهم شيئًا.» كانت تحدّثه وكأنّه غريب. لا شيء يذكّرها بأنّها كانت لهذا الرجل، حتى جسدها لا تكاد تحسّ به. كلّ شيء صار أكثر التباسًا من ذي قبل. الشّيء الوحيد الذي تعرفه، أن شخصًا يكذب. ولكنّها كانت مجهَدة كي تواصل التّفكير، مجهَدة كي ترى أيّ شيء. نزلت المدرج مغمضة العينين، مثل محكوم عليه يسير إلى المقصلة.

كان الشارع مظلمًا عندما خرجت. خطر ببالها خاطر: لعلّها تنتظرني هناك، ربّما ستنقذ حياتي في آخر لحظة. بدا أنّ من واجبها ضمّ اليدين والتوسّل إلى الربّ، هذا الربّ المنسيّ. أوه، لو تستطيع شراء مهلة ببضعة أشهر، بضعة أشهر حتى فصل الصيف، والعيش هناك، في سلام، بعيدا عن مرمى المبتزّة، وسط المروج والحقول، صيف واحد فقط [ولكن زاخر وملآن بشكل يعادل عمرًا بأكمله!] أنعمت النظر في الشارع وقد أظلم. في الناحية الأخرى، تحت بوّابة العربات، خيّل إليها أنها رأت طيفًا راصدًا، ولمّا اقتربت اختفى الطيف وغاص تحت الباب. ظنّت لحظةً أن له شَبَهًا بزوجها. للمرّة الثانية في هذا اليوم، اعتراها خوف لإحساسها فجأةً بحضوره ونظره. تباطأت كي تتأكّد، ولكنّ الطيف توارى في العتمة. واصلت قلقة، وبها إحساس غريب بتصلّب في قفاها، كأنّ خلفها نظرة تلهبها. التفتت مرّة أخرى، ولكن لا أحد.

لم تكن الصيدلية بعيدة. دخلت إليها برجفة خفيفة. تناول الصيدليّ الوصفة وبدأ إعداد المستحضر. خلال دقيقة، رأت إيرين كل شيء؛ الميزان اللامع، الأثقال البسيطة، اللاّفتات الصغيرة، وفي أعلى الخزائن اصطفاف العقاقير بأسمائها الغريبة، باللاتينية، التي كانت عيناها تقرآنها بشكلٍ آلي. كانت تسمع تكتكة البندول، وتشمّ تلك الرائحة المميزة، رائحة الأدوية الدّسمة والعذبة، وتذكّرت فجأةً أنها في طفولتها كانت عادة ما تطلب من أمّها، كمحاباة، بأن تكلّفها بالمشتريات من الصيدلية لأنها كانت تحبّ تلك الرائحة والمنظر الغريب لكل تلك القناني اللامعة. تذكّرت بفظاعة أنّها غفلت عن

توديع أمّها، وأشفقت بقوّة على تلك المرأة المسكينة. كم ستصاب بالهلع. فكّرت مستاءةً، ولكنّ الصيدليّ كان قد بدأ يعدّ القطرات الصّافية التي يصبّها من بوقالٍ مستدير في قنّينة زرقاء. مركّزة النظرة، كانت ترى الموت يمرّ من وعاءٍ إلى آخر؛ عمّا قريب سيسيل في عروقها، وإذا إحساس بالبرد ينفذ إلى كافة أعضائها. منذهلة، كأنّها منوَّمة، كانت تركّز النظر على تلك الأصابع التي تضغط الآن على سدّادة القنينة الملآنة، وتلصق شريطا ورقيّا حول التقبّب الخطير. كلّ أعضائها كانت منذهلةً ومشلولةً بالفكرة الفظيعة.

«كرونتان، من فضلك»، قال الصيدلي. خرجت من ذهولها وقلبت حولها نظرة غائبة. ثم فتّشت في محفظتها لتسحب النقود. كانت لا تزال في ما يشبه الحلم؛ نظرت إلى القطع النقدية دون أن تتعرّف عليها في الحال، واستغرقت وقتًا في عدّها.

في تلك اللحظة، أحسّت أن ذراعها دفعت بشدّة إلى جانب، وسمعت قطعا ترنّ على البوتقة البلورية. وإذا يد تتقدم بجانبها وتستولي على القنّينة.

التفتت مباشرة، فتجمّد نظرها. كان زوجها يقف متشنجًا صارًّا شفتيه. كان وجهه ممتقعًا وعلى جبينه حبّات عرق.

كاد يُغشى عليها واضطرّت إلى التمسّك بمبسط السّلع. وفي لحظة فهمت أنه هو الذي رأته في الشارع، وهو الذي كان يرقبها منذ قليل، تحت بوّابة العربات؛ شيء مّا جعلها تستشعر أنّه هو، وذكّرها به في بلبلة هذه اللحظة.

«تعالي»، قال بصوت أكمد مختنق. نظرت إليه بتركيز، وفي قرارة نفسها، في دائرة شديدة الظلمة والعمق من وعيها، تعجّبت من إطاعته. اقتفت أثره دون وعي.

عبرَا الشارع جنبًا إلى جنب، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر. كان لا يزال يمسك بالقنينة. ثم توقّف لحظة ومسح جبينه الدّبق. كبحَت مشيتها هي أيضًا، دون أن تدري، ودون أن تريد. ولكنها لم تكن تجرؤ على النّظر إليه. لم ينبس أحدهما بكلمة. كانت جلبة الشارع تنهال بينهما.

في المدرج، تركها تتقدّمه. وما كاد يبتعد عن جانبها حتّى ارتجفت رجلاها. توقّفت وبحثَت عن سنَدٍ. عندئذٍ أمسك ذراعها. فإذا هي تنتفض لذلك الملمس وتصعد الدرجات الأخيرة بأكثر سرعة.

دخلت الغرفة. تبعها. كان للجدران سطوع معتم، حتى أنه من الصّعب تمييز الأشياء. لم يتفوّها بكلمة بعد. مزّق ورق التغليف، نزع سدّادة القنينة، وأفرغ محتواها. ثم رماها بعنف في ركن. انتفضت لسماع صوت الزجاج.

كانا لا يزالان يلزمان الصمت. وكانت تحدس إلى أي حدّ يرغم نفسه، تحدس ذلك دون أن تنظر إليه. أخيرًا دنا منها؛ قريبًا، ثم أقرب. كانت تحسّ أنه يتنفّس بصعوبة، ونظره الثابت، وكأنّه مضبّب، يلوح منه التماع من عينيه يبرق في عتمة الغرفة. كانت تتوقّع أن ينفجر غاضبًا، وترتجف في مكانها مخافة أن يمسكها بيده الحديدية. توقّف قلبها عن النّبض، عروقها فقط كانت تتذبذب مثل أوتار تمدّدت

إلى أقصى حدّ؛ كل ما فيها ينتظر العقاب، وهي تكاد تشتهي غضبه. ولكنّه واصل الصّمت، وفي مفاجأة قصوى، شعرت بكثير من الرّقة في طريقة اقترابه. «إيرين، -قال، وكان صوته ناعمًا بشكل غريب-. إلى متى سنظل نعذّب بعضنَا بعضًا؟»

عندئذٍ انفجرت فجأةً، في عنفٍ لا يصدّق، ما يشبه صرخة واحدة رعناء متوحّشة، وانهلّ الدّمع الذي كتمته وكبحته طيلة تلك الأسابيع، كأنّ يدًا عنيفةً أطبقت على أحشائها وراحت تخضّها بقوّة. ترنّحت كالسكرانة، وكادت تقع لو لم يمسكها زوجها.

«إيرين»، قال يهدّئها، «إيرين، إيرين»، في صوتٍ ما انفك يلطّف ويسكّن، وهو يضفي على اسمها نغمة تزداد حنانًا، كأنّ بوسعه أن يهدّئ الثورة اليائسة لأعصابها المتشّنجة. فلم يجبه سوى نشيج، في هبّات متوحّشة، مثل موجات ألمٍ تهزّ كامل جسدها. حمل ذلك الجسم الذي اعترته اختلاجات ومدّدها على أريكة. ولكنّ النشيج لمْ يهدأ، وواصلت أزمة الدّمع خضّ أعضائها مثل شحنةٍ كهربائية، وبدا كأنّ موجات ارتعاشٍ باردٍ تجتاح ذلك الجسد المعذّب. أعصابها، التي خضعت منذ أسابيع إلى جهد لا يطاق، انهارت الآن، وثار الألم باهتياج في هذا الجسم الذي صار عديم الإحساس.

كان زوجها، وقد تأثّر كثيرًا، لا يزال يحافظ على ذلك الجسد المرتعش؛ أمسك يديها المثلجتين، ولثمها بلطف، على فستانها في البداية، ثم في جيدها، ثم بقلق مولّه؛ ولكنها كانت لا تزال منطويةً

على نفسها، كأنّ الاختلاجات تمزّقها، وموج الدّمع إذ تحرّر كان ينصبّ مدرارًا. لمس وجهها البارد المبلّل بالدّموع، وأحسّ في صدغيها نبض الدم. استبدّ به خوفٌ لا يوصف. انحنى حتّى قارب وجهَها كي يكلّمها.

«إيرين»، لم يكفّ عن مداعبتها، «لماذا تبكين؟ الآن... وقد انتهى كلّ شيء... لماذا تواصلين تعذيب نفسك... لن تكوني بحاجة إلى الخوف... هي لن تعود، أبدًا...»

اعترت إيرين هزّة أخرى، فأمسك يديها. وإذ أحسّ اليأس الذي يمزّق ذلك الجسد المعذب، كبس عليه ضيق شديد، وخيّل إليه أنّه قاتِلُها. ما انفكّ يقبّلها ويغمغم باعتذاراتٍ بصوتٍ متقطّع.

«كلاّ... أبدًا... أقسم لك... لم أكن أتخيّل أنّك ستخافين إلى هذا الحدّ... لم أشأ إلاّ إطلاق نداء... تذكيرك بواجبك... كي تفارقيه... نهائيًّا... وتعودي إلينا... لم يكن لي خيار حين علمت بالمسألة عن طريق الصّدفة... ولكنّي لم أستطع أن أقول لك ذلك بنفسي... فكّرت... فكّرت دائمًا أنّك ستعودين... لذلك أرسلت تلك المرأة المسكينة، لتحضّك على ذلك... هي بنت مسكينةٌ، ممثّلةٌ عاطلةٌ عن العمل... ولم تقبل إلاّ على مضضٍ، أنا الذي أراد ذلك... وها أنذا أدرك أني كنت مخطئًا... ولكنّي كنت أريد بقوّة أن تقولي... وأظهرت لك دائمًا أني مستعدٌّ لـ... وأنّي لا أرغب إلاّ في الصّفح، ولكنّك لم تفهميني... كلاّ... لم أكن أريد دفعك إلى مثل هذا الحدّ الأقصى... في الواقع، لقد ازددت

ألمًا لرؤية كلّ ما يجري... لقد راقبت كلّ خطوة من خطواتك... فقط من أجل الطفلين، لو تدرين، من أجل الطفلين اضطررت أن أرغمك... ولكن الآن انتهى كلّ شيء... الآن كلّ شيء سيسوّى...»

كانت تسمع بطريقة غير واضحة، عن بعد لانهائيٍّ، كلمات تبدو قريبة ولكنّها لا تفهمها. كان صوتٌ يتضخّم بداخلها، يغطّي على كلّ شيء، جلبة حواس يتوارى فيها كلّ إحساس. أحسّت بلمسات خفيفة على جسدها، قبلات، ومداعبات من دمعها الذي ابترد، ولكن تحت الجلد كان الدم ملآنًا بصوتية صمّاء، هادرة، آلت إلى انفجار مثل أجراس مضطربة. ثم غام كلّ شيء أمامها. وهي تفيق من غشيتها، أحسّت في بلبلة أن ثيابها تنزع عنها، ورأت، وكأنما من خلال ضبابٍ، وجه زوجها لطيفًا وقلقًا. ثم غاصت في الظّلمات، في ذلك النّوم الأسود الخالي من الأحلام الذي طالما حرمت منه.

عندما فتحت عينيها في صباح الغد، كان الصّفاء يغمر الغرفة. ذلك الصّفاء، أحسّت ذلك، كان أيضًا بداخلها، دون ضباب، وقد تطهّر دمها كما تتطهّر الأرض بعد العاصفة. حاولَت أن تتذكّر ما جرى لها، ولكن كلّ شيء كان يلوح لها كما في الحلم. ذلك الاندفاع اللاّإرادي الذي تحسّ به بدا لها غير واقعيٍ، خفيفًا ومحرِّرًا، كما في عمليات الطيران حيث يحلّق المرء في الجوّ أثناء نومه، ولكي تتأكد من كونها ليست نائمة جسّت يديها.

اهتزت فجأةً؛ كان الخاتم يلمع في إصبعها. عندئذٍ صحت

تمامًا. الكلام الملتبس الذي سمعته دون أن تنصت إليه، والشعور الغامض الذي اعتراها دون أن تجرؤ على تحويله إلى فكرة أو شكّ، ارتبط أحدهما بالآخر وصارا متناسقين. فهمت دفعة واحدة كلّ شيء، أسئلة زوجها، تعجّب عشيقها، انحلّت كلّ العقد الواحدة تلو الأخرى، وأدركت في أيّ شبكةٍ فظيعة وقعت. غمرتها مرارة وخجل، وعادت أعصابها تختلج، فكادت تأسف لاستفاقتها من ذلك النّوم الخالي من الحلم والخوف.

في تلك الآونة، ندت ضحكات في الغرفة المجاورة. كان الطفلان واقفين يتناوشان كعصفورين يحيّيان النهار الطالع. ميّزت بجلاء صوت الولد، وأدركت لأوّل مرّة، في تعجب، إلى أي حدّ يشبه صوت أبيه. افترّت شفتاها عن ابتسامة استطالت. ظلّت مستلقيةً، مغمضة العينين، لتتذوّق بعمق كل ما شكّل حياتها، وما يشكّل منذ الآن سعادتها. كانت لا تزال تشعر بالألم، داخلها، ولكنه ألمٌ مليء بالوعود، مبرّح وسارّ في الوقت نفسه، مثل جروحٍ تحرِق قبل أن تلتئَم نهائيًّا.

ستيفان زفايغ

الخوف

لقد استطاع زفايغ، بما له من قدرة على سبر أعماق النفس الإنسانية، أن يخلق عملاً بالغ التشويق، يجعل القارئ يلهث مع البطلة الساعية إلى حلّ يضيّع عليها، حتى صارت كالسائرة إلى حتفها بظلفها، منساقة وراء قدر غامض، لا تعلم من سطره إلا حينما شارفت على وضع حدّ لحياتها اتقاء الفضيحة والعار.

إنها حكاية امرأة من داخل الوسط الأرستقراطي ملّت حياة الرتابة فرامت المغامرة، وخلعت أقلامها لتجد نفسها مكبّلة بأغلال جديدة، وبين نداء اللذات وسطوة المجتمع خيطٌ مشدود على الهاوية تقف عليه البطلة مسكونة بالرعب وحيدةً لا أحد يشاركها حالها غير زفايغ وهو يعاين هشاشة الإنسان وتقلّباته.

في هذه القصة التي تحولت منذ العشرينيات إلى أفلام سينمائية عديدة أشهرها من إخراج روبرتو روسلّيني وبطولة إنغريد برغمان، نجد الثيمات التي شغلت زفايغ، كالموت، والخوف من الفضيحة والعار، والاعتراف والصفح. وكعادته يبرع زفايغ في تصوير ما يعتمل في النفس من صراع تصويرًا ينمّ عن سعة الحرية وثقافة غزيرة.

أبو بكر العيادي

